دراسات اليوم
تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

أضواء على ٥ يونيو

حسين ذو الفقار صبري

حسين ذوالفقار صبرى

أضواء على ٥ يونيو

مقدمة

هذا الكتاب مجموعة من مقالات كتبتها خلال الأعوام الثلاثة الماضية ، حاولت فيها أن ألقى أضواء على بعض الاوضاع السياسية ، هنا أو هناك ، دون سعى جدى الى موضوعات بعينها فأتخيرها ، بل حيثما كانت تقودنى الظروف أو يدفع بقلمى الى تناولها .

ثلاث منها نشرت عام ١٩٦٦ ، واثنتان فى النصف الاول من ١٩٦٧ ... قبل عدوان الخامس من يونيو ، فربما أن تساءل القارى عن الدواعى الى اعادة نشرها ، وكأن قد جاوزتها ظروف الزمان ...

تلك وجهة نظر جديرة بالاعتبار لو أن نظرنا الى الخامس من يونيو فاصلا قاطعا بين عصرين ... كأنه كتب نهاية عالم قد ولى ... أو ختم على عصر قد ووري التراب بحلوه ومره ، فهو بظروفه وأحواله الى ((خبر كان)) كما قد يقول النحاة ...

ولكن الانسان ليس ابن يومه ، وانما هو فى حقيقة أمره تجسيد دينامى لتجارب الأمس ، قريبا كان أم بعيدا ، ثم أنه مجرد قطرة من تيار زاخر هو حياة الشعب الذى اليه ينتمى ، وان الشعوب لجماع تجارب أجيال عن أجيال ...

والأوضاع الدولية ليست الا التفاعلات الحية لتلك الآمال المختزنة فى وجدانات الشعوب مترجمة تخطيطا الى اتجاهات وتطلعات .. متقابلة كانت أم متصادمة ، متوائمة أم متناحرة ، متلاقية أم متضاربة .

فان كانت قد كتبت قبل الخامس من يونيو ، الا أنها مقالات تعرض لبعض من تيارات عميقة الجذور ، مايزال لها تأثيرها ، فى اعتقادى ، على مجريات الأمور فى مجالات السياسة ، محليا ودوليا .

منها مايعرض للمناخ السياسى الذى أهل على موسكو عقب استقالة خروشوف ... بوادره الى تأيد فى بعض نواحيه ، ومنها ما يشير الى التيارات ألتى آثارها فى العالم الشيوعى التباعد الفكرى المتزايد فيما بين قطبى موسكو وبكين ...

واحداها حاولت من خلالها القاء نظرة ماسحة لمختلف الاتجاهات التى تتنازع العالم الثالث ... فأين ياترى نقاط الالتقاء ... وأين مكامن العثار ... ؟

ثم مقال دفعت الى كتابته دفعا ، اذ لاحظت ترديا الى أحلام يقظة فيما يتعلق بثقل افريقيا السياسى ، وكأنها تنعبأ الى قوة ثلاثة ، اعتقد الكثيرون انها فى طريقها الى تجسد آخرا لنا ومتآلبة على الاستعمار .. فى حين أنها قوى ما تزال منغلقة على نفسها ، ربما أصبحت عونا لنا فيما بعد ، ولكنها مازال تحبو متحسسة الطريق الى جادة تفصلها عنها مسافات شاسعة من أجيال لم تر بعد النور ...

وأخيرا مقالان ــ خطهما قلمى بعد الخامس من يونيو ــ نشر أولهما فى العام الماضى ، والآخر لم يمض عليه سوى أيام قليلات ...

هذا المقال الاخير ((اسرائيل والصهيونية ومعركة المصير)) ، أردت به الى تناول العلاقة العضوية الخاصة التى تربط بين اسرائيل من جهة والصهيونية العالمية من جهة أخرى ... علاقة لاتخفى أسبابها على كثيرين ، كما أننا جميعا نعانى من عواقبها ... علاقة أفاض من قبل الكتاب فى توضيح روابطها ، فلو أنى سعيت الى مجرد عرضها لكان تزيدا لامعنى له ، وانما أقصدت الى توضيح ضرورة بذل الجهود فى محاربة الصهيونية ذاتها ، فلا نقصر جهودنا ، كما فعلنا وما نزال نفعل ، على التصدى لتلك الظواهر التى تطالعنا بها فى صورة من تأييد مباشر لاسرائيل ... صحيح أن اسرائيل تمثل الخطر المتجسد ، حريا بأن يأخذ علينا اهتماماتنا جميعا ، ولكنها ــ فى اعتقادى ــ لاتعدو أن تكون تفرعة لأصل ،

فبعضا من جهود الى حيث جذور الشر ، ايهانا للفرع وتقييدا لقدرات غير ذاتية ــ من واقع جبلة طفيلية طبعت عليها ــ برعت الصهيونية العالمية فى اعتسارها لخدمة مآربها الخفية ...

وأخيرا ((أضواء على الخامس من يونيو)) وجدتنى مدفوعا الى كتابته بعد فراغى من كتاب ((يانفس لاتراعى)) والذى هو صرخة أسى لم تحفل بالوقائع الا اطارا لتصوير حالةغاصت بى الى أعماق تجربة كادت أن تكون ذاتية صرفا .

مقال هو ارتداد عن المعاناة الوجدانية الى التحليل الذهنى . . . سعيا الى استقراء أسباب الهزيمة ، موضوعيا ... وانتشالا للفكر من دوامات انفعالات شتى ... أطاحت به صدمة الهزيمة الى بؤراتها الدوارة فتكاد أن ((تنشفط)) بالمرء الى أغوار لاقرار لها من ((سلبيات)) لاشعورية من جوى وكمد ، ونواح وأسى ، وقنوط وغم وهم حتى يكاد ان يرون عليها اليأس المقيم ..

هو مقال فيه محاولة جادة ــ قصارى طاقتى ــ مغالبة للانجراف الانفعالى ، سعيا الى نظرة موضوعية ... فيبين لنا أين كانت مواطن الزلل ، عسى أن نستفيد بها دروسا فنستجمع اشتات قوانا وننهض على أقدامنا من جديد .

وربما كان هذا هو الذى دعانى أن أمانع فى اضافة هذا المقال لكتاب ((يانفس لاتراعى)) .. رغم الحاح الكثيرين ممن كانوا قد اطلعوا عليه ، وكأنى بهما وجهين متقابلين يفتقران الى اتساق .. أو ربما لأن أصول الكتاب كانت قد أرسلت الى المطبعة فعلا ، فآثرت أن أتحجج برأيى ذاك حتى لايتعطل ، فان المرء موكل بأن يخترع من بعد ((معقولية)) أسباب تبريرا لئلا يكون قد أقدم عليه عفو سانح رأى ..

وربما أن عجب القارىء ان الكتاب لايلتزم ، كما كان يجب أن يكون ، بتقديم المقالات التى يحتوى عليها فى تسلسلها الزمنى ، طبقا لتواريخ

نشرها ... وانى فى هـذا لمدين لحصافة هيئـة التحرير ، وعلى رأسها الاستاذ الكبير محمود أمين العـالم ، فأى قارىء هذا — فى الظروف التى نعيش — تقع عينه على فهرس المواضيع ، فلا يطوى الصفحات طيا متعجلا استطلاع المقـال الذى يتناول أحداث الخامس من يونيو ، مرجئا النظر فيما عداها ...

فلا محل اذن الا الالتزام بما نعتقـد أن سوف تكون عليه اهتمامات جمهرة القراء ...

وان هذا ليحدونى أيضا الى ألا أطيل عليكم .. رجائى الوحيد أن يجد القارىء فيما قدمت بصيصا من أضواء على بعض من أوضاع ، لها أهميتها فى محيط السياسة الدولية والداخلية على حد سواء ..

ذ . ص .

القاهرة فى ١٥ مايو ١٩٦٩

أضــواء
على ٥ يونيو

مضى العامان على عدوان ٥ يونيو ، وهاك ثالثا يتلوه منسلا شهرا اثر شهر .. وقعهجوم اسرائيل الغادر بينما كنت فيغربة ، وهزتني الهزيمة الى الاعماق ، خاصة أن أنباءها كانت تترامى الى متواترة من بعيد ، فأتلقاها ممزق النفس بين انكار واذعان لقضاء بدا أنه قد حم ، يتنـاوحني الأمل والألم ، أمل لا أكاد أتعلق بأهـداب له هي من صـنع خيـالات التمني حتى أصدم مرة بعد أخرى الى ذهول ، فأتخبط فى حالة مروعة من فقدان وزن وضياع اتجاه ..

ثم وجدتني بعد العودة الى أرض الوطن المسجى مدفوعا الى تسطير تلك التجربة المريرة القاسية فى صورة من يوميات (١) لا قوام لها من موضوعية الا « موضوعية التجربة الذاتية » — ان صح هذا التعبير — وكأنما النفس قادرة على أن تفصم بين حـواس الادراك وأحاسيس الانفعـال ، فتلف تلك بأناة وتمضى بهـا متمهلة ، ثبتة الرأى ، ناظرة حاسبة ، بينا هذه تحز حزا اذ ينهش القلب ، وقد تفطر ، بضعة أثر بضعة .. ترى أكان الفكر هو الذى يحـرك القلم فيسجل ، أم أن الاحشاء هى التى تضطرب فتجيش بلوعة وأنين ! ..

مضى عامان .. فربما أن تكون النفس قد اسـتعادت نصـابا من روية واتزان ، فانى اذ أنظر الى الوراء أكاد أشـعر أن قد زال ما كان أصاب أبعاد الرؤية من انبعاج عاطفى ، وأن قد سكن الفكر الى معايير معقولة من ترابط موضوعى بين علة وسبب ، فهل آن لى اذن أن ألقى ما كان نظرة متفحصة ؟ ..

أول ما لفت انتباهى فى أعقاب العدوان تلك الموجة الغلابة من ضراعة الى الله ، ولا غرو فهو النصير حين لا يكون نصير ! ولكنى اتسـاءل أهى صادقة حقا ؟ أصادرة هى عن قلوب أفعمها الايمان فعلا ؟ أم تراها قول لسان ؟ أو أدهى من ذلك .. صرخة اليأس كتلك التى أطلقها فرعون بأن قد آمن ، وما كان ليقولها لولا أن أدركه الغرق ! ..

ما من مكان الا وأعلقت به الآيات الكريمة ، تراها حيثما كنت ، وانى توجهت .. فى الطرقات ، فى الحوانيت ، فى المكاتب ، وعلى جدران البيوت .. واحدة منها هى السباقة الى الانظار ولا منازع فنحن نعانى من آثار هزيمة نكراء ، لا يمحوها الا النصر ، نصر من الله وفتح قريب ! ..

---

(١) اشارة الى كتاب « يانفسى لاتراعى » دار الكاتب العربى .

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » : حـروف تشع بنور فى كل مكان فيلهج بها كل لسان ، هكذا قال سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز - وانه على وعده لحفيظ : ..

ولكن مهلا ! فقد اتبعها تعـالى بما فيه توضيح وتحذير لمن أراد أن يتدبر فيتعظ : « وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

فان الله لا يوزع النصر جزافا ، انما هو الوعد الحق لمن استحق ! وانه لوعد حق ــ ما فى ذلك مرية ــ ولكن ليس كما اعتقد من آثر أن يقعد عن السعى .. فليس للانسان الا ما سعى :..

وكأنى بنفر ينجهم فيبرطم بذلك السـؤال الاسـتنكارى التـليد : « وهل يتخلى الله عن المسلمين : » .

ولكن مهـلا مهـلا مرة أخرى ! بل أربع على نفسك قبل أن يجمح بك اللسـان فتلويه بقول يغوينـا بالاستكانة الى عقبى الأمور ... تحسبه من الكتاب وما هو من الكتاب ! فانما اختص الله برحمته أصحاب دار الايمان ، وليس من وعد لمن عبده على حرف !

ولذا فكم أثلجنى أن أرى بعض تحول ــ طفيف للاسف ولكنه بداية على كل حال ــ حين اتجه البعض الى تلك الآية الكريمة الاخـــرى ، واضحة المعنى لكل ذى فهم ، قصرت مداركه أم اتسعت ؛ والتى تصور حالنا أصدق تصوير ، اذ يقول عز وجل : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

يشير بأن قد أفقنا الى جوهر الموضوع ، فان من الآيات الكريمات ما لا يفقـه عنهـا المتعجل غير المتثبت ــ وأنهم الجلة الغـالبة ــ الا عارض معنى ، فننزهها عن أن ترقع على اللافتات وكأنها شعارات ــ وأعجب به من عصر ، مضمونه الحضـــارى هو اللافتات ــ فيهـا روى للعين فتخذأ ، بينـا كان حريا بهـا أن تستنفر الهمم فتنشط ... تعـاويذ سحرية مفعولها أكيد ــ « افتـح يا سمسم » ــ دون ما ذريعة أو سبب ، ومثلهـا مقولات ومعطيات نتعلق بها وكأنها مسـلمات أزلية ، صالحة لكل عصر وأوان وما اختلف من ظروف مكان ، تقبع فى كنفها مستنيمين ، وكفى الله المؤمنين شر اعمال الفكر ! فان من الفكر ما يقض على المرء راحة باله فيدفع به الى عنـاء تقليب الامور ، والاكباب على حساب الاحتمالات ، والسعى الى استنباط الوسـائل ، والكد الكادح فى سبيل الاعداد !

⊙✣⊙

فى عام ١٩٥٦ ارتد العدوان الثلاثى عن بلادنا مدحورا ، وكان علينا أن نستخلص لأنفسـنا من ذلك الحدث الخطير معانيه ودروسه ... كان نقطة تحول ضخمة فى تاريخنا ، وكانت له ردود فعل حرية بأن تقلب الموازين فى ميادين السياسة الدولية ، فترجح من كفة الشعوب فى صراعها الأبدى ضد قوى الشر والعدوان .

بدا حينذاك أن « حرب السويس » — كما سميت — قد رسمت حدا فاصلا قاطعا بين الاستعمار القديم بأساليبه المباشرة المعتمدة على التدخل العسكرى السافر وبين الاستعمار الجديد اذ يموه متخليا عن الشكل فى سبيل الاحتفاظ بالجوهر ، سالكا دروب السيطرة غير المباشرة ، متجنبا قدر الامكان — بل تماما ! هكذا كان الظن ... اثارة الضمير العالمى بتدخلات فظة فجة .

هكذا بدا ، ولا شك أن النتيجة التى استخلصنا ارتكزت حينذاك على واقع صلب من رؤية واضحة المعالم ، فالكتلة الاستعمارية تواجه قوة صاعدة متراصة من بلاد اشتراكية ، تقض عليها مضاجعها وتشد اليها اهتماماتها ... كتلتان كبيرتان تقف كل للاخرى بالمرصاد ، وفى العاصمتين القطبين ، واشنطن وموسكو ، رجال ذوو أنامل لا تكاد تستقر من قلق ، متحفزة للضغط على الازرار — اذا ما بدرت عن الجانب الآخر بادرة سوء — فتنطلق قذائف السلاح النووى الرهيب ، حيث لا غالب ولا مغلوب ، وانما الانتحار الجماعى للبشرية دون تفرقة أو تمييز .

وفى ذلك الجو المكفهر من تربص وتحفز ، كمشت القوى الاستعمارية نفسها متحيرة ، فقد دال عصر احتكارها للاسلحة النووية .. كان يكفيها من قبل أن تكشر عن أنيابها فتنكص قوى الكتلة الشيوعية على أعقابها ولما أن تقدمت — فى ايران ، فى اليونان ، فى تركيا ، فى برلين — فقد كان الجنون بعينه المجازفة بمكاسب ضخمة انتزعها كفاح الاجيال !

هذا الى حين .. واذا بالولايات المتحدة تصدم صدمة العمر فى كوريا ، وهى التى اعتقدت ان قد تبوأت ، مستتبا غير مزعزع ، مركز الآمر الناهى المتصرف فى مصائر الشعوب .. وورطة مهينة اذ تكتشف فجأة أنها عاجزة عن الالتجاء الى الاسلحة النووية — التكتيكية منها حتى .. الا تلويحا وبقصد ارهاب ! فقد أصبح للاتحاد السوفيتى قوة نووية مضادة — ذلك أمر كانت عرفت به — ولكنها لم تتدبر الابعاد الحقيقية لاحتمالاته الا حين جد الجد ، فيتملكها قلق وجزع ، وتزيح دون أدنى تردد عن مراكز السلطة أو القدرة العسكرية الجنرال ماك أرثر وأمثاله ممن تخيلت فيهم ميلا الى المجازفة .

صدمة لا يعرف مداها الا من تتبع عن كثب ردود الفعل فى الاوساط الامريكية الحاكمة ، وفى قطاعات واسعة من الرأى العام فى تلك البلاد ، كانت أشعرت أن العالم قد دان واخفض لها المواطىء سهلة ، وورطة مهينة بل صدمة عنيفة ، لان الولايات المتحدة ما كان بوسعها فى الوقت نفسه أن تلغى بجرة قلم الرواسخ الاساسية لاستراتيجيتها الامبريالية والا انهار صرح بنيانها الاقتصادى ، فالهيكل الطبقى لمجتمعها ، ثم تنظيماتها السياسية حتى ... بل قل صميم كيانها ان شئت !

ليس أمامها اذن الا أن تجند علماءها ومفكريها وخبراءها عساهم أن يجدوا لها مخرجا ، بل تلافيف من دروب تدلف بهم مرة أخرى الى حيث الجادة ، الى أساسيات تلك الاستراتيجية العالمية الطموح ، لا قوام ولا تماسك لكيانهم الا بها !

همـا حجرا أســاس رئيسيان ، أولهمــا ، وسابق من حيث زمن ، تقليدى كأنما ماء الحياة بالنسبة لها ، ينبثق من نصوص مبدأ منرو ، الا وهو الحفاظ على أمريكا اللاتينية « ضيعة » لا يشاركها فى استغلال ثرواتها دخيل .. الا على استحياء ، وربما « خزوا للعين » فحسب ، وثانيهما هو الامتداد بل النمو الطبيعى للمبدأ الاول ، أو قل هو نفسه فى صورة من توسع فى التطبيق ، اذ تضخمت امكانيات الولايات المتحدة الى قوة عالمية فى أعقاب الحرب العــالمية الثانية ، فتجوب أســاطيلها البحــار والمحيطات وكأنما تحولت جميعا الى مياه اقليمية للقــارة الامريكية ..

استراتيجية طموح ، وليس بدعا أن يخرج علينا كنيدى بـ « الآفاق المفتوحة » شعارا ، انما هى نظرة منه ثاقبة فيتخذ لواقع الامور ـ بل لواقع الاطماع فهو التعبير الأدق ـ العنوان الدال !

انهــا اتجاهات استنبطتها السياسة الامريكية منذ خروجهــا مظفرة ، غير منهوكة القوى كغيرها ، من أوار الحرب العالمية الثانية ... بلاد العالم وشعوبه جميعا آفاق مفتوحة ! الا تلك المنطقة فى قلب القــارة «الأوراسية» التى وان أثخنتها المعارك الضــارية مع جحافل الجيوش النازية فهى النواة الصلبة لنظرية اجتماعية مضادة ، ومنبعث محتمل لنوافث من رياح التغيير ، حرية بأخصاب اتجاهات التحرر عند كافة الشعوب ، فلتعزل اذن ! بأن تقام من حولها الاسوار .. سلسلة متصلة الحلقات من قواعد عسكرية ومناطق نفوذ ، احتواء كامل شامل أو يكاد لمعسكر الدول الاشتراكية .

ثم الصدمة ، اذ تتوصل تلك الكتلة المعزولة ، رغم تخلفها السابق ، ورغم الضغوط المستمرة من حولها ، وفى غفلة من حساب ، الى السلاح النووى الرهيب ، وتفيق الولايات المتحدة ، بينما هى غارقة فى مغامرتها الكورية ، الى حقيقة مرة عســيرة الهضم ، فالآفاق التى تتطلع اليهــا ليست مفتوحة « سداح مداح » كما كانت تظن وتبغى ، وانما دون ذلك حدود معينة ، حذار من مجاوزتها والا قامرت .. ليس بحياة الكوكب وما يغص به من شعوب ـ فهذا لا يقضى عليهــا فى كثير ـ وانما بصميم وجودها من ضمن !

صدمة العمر ! وعكف خبراؤها على الدراســة .. وبدا كأن يتنــازع تصرفات رجالاتها المسئولين تياران ، أولهما هو فى حقيقته ، وان حرص صاحبه على اضفاء مخايل من عبقرية على مضمونه ، مجرد رد فعل تشنجى ـ كالطفل اذا ما حرم فجأة من لعبته المفضلة ـ دفع به فوستر دلاس متباهيا الى مداه فيما أسماه بسياسة « حافة الهاوية » ، ثم تيار آخر خبيث رصين ، تبرز معــالمه فى نظرية الجنرال نورســـتاد الامريكى ـ قائد حلف الاطلنــطى حينــذاك ـ اذ اتجهت العســكرية الامريكية ، كما يتضح الآن من قرارات حلف الاطلنطى فى اجتماعه السرى بلشبونة عام ١٩٥٢ ، الى التوسع فى بناء قواتها التقليدية فتصبح أداة تدخل محدودة فى اطار محدود ، بعيدا عن مزالق الالتجاء الى الأسلحة

النووية فى الميدان المنعزل ، أو عن توسعة جبهة التدخــل فتثير جزعا متفاقما .

ويضع الجنرال نورسـتاد للاستراتيجية الجـديدة معيارين ، قمة يسميها « العتبة » يتحتم عندها الالتجاء الى الاسـلحة النووية « التكتيكية أولا وكأنما للتحذير ، والا فهى الحرب الشاملة ! أما فيمادون هذه القمة فيتعين علىالولايات المتحدة أن تجابه المشاكل اذا ماتصاعدت احداها ، أو أن تصاعدت هى بها كما هو الغـالب على تصرفاتها ، بما يسميـه « الوقفــة » ــ هى فاصـل من أناة وتريث ــ فسحـة من وقت فيتدبر الجانب المقابل ــ أى المعسكر الاشتراكى ــ الامر عسى أن يختار طريق التفاوض .

وهكذا ارتفعت الولايات المتحدة بسياستها وئيدا من نطاق الانفعالات التشنجية الى مستوى من مرونة فائقة ، مسـتغلة ما تضفيه عليهـا سيادة أساطيلها على أعالى البحار من انبساط مجالات الحركة ، ولكنها لا تصاعد بعملياتها الا درجة اثر درجة وبحسـاب ، متلفتة بين الحين والحين ، مرهفة السمع ، تقيس ما عليها أن تخطو من خطوات وما قد يقابل ذلك من مسافة أو جهد ، أو ما ينفسح أمام الجانب الآخر من هامش وقت لو أن قرر مقارعة التدخل أو أن يتصدى له على الاقل .

وفى ذلك الجو المحفوف بمخاطر جمة تهددت البشرية جمعاء بالدمار الشامل لو أن أزلق الحسـاب حتى عن غير قصد بزلة من هنا أو من هناك ، تحولت الحرب الباردة الى نظرية من تعايش سلمى تحظى من كلا الطرفين باحترام قل ان حظيت به حتى أدق المعاهدات نصوصا ، ولكنه احترام فرضـه أسـاسا تخوف كل جانب من النوايا التى يظن أن قد أضمرها الجانب الآخر .

واذا بالموازين الدقيقة تختــل متقلقلة اذ يفجر خروشـوف الموقف بأزمة صواريخ كوبا .

اختلس فرصة فيتحرك بها خفية الى هناك .. أهو عمل أقدم عليه بعد حساب وأناة رصدا للاحتمالات والعواقب ؟ ان الدارس لشخصية هذا الزعيم غريب الاطوار ، واسـع الحيلة ، المتدبر أموره حتى أدق التفاصيل اذا ما كانت المآزق ، ليشـده لملامحه تلك الاخرى ، وكأنها لشخصـية جد مختلفة ، فهو « الفهلوى » المهذار ، اللاعب « بالثلاث ورقات » ، حين تكون فرجة تنبسط فيها الامور .

انى أعتقد ، وهو اعتقاد أحمـل وزر مسـئوليته وحدى ، أن قد صدقت نية خروشوف فى الالتزام بمبادىء التعايش السلمى بل ظن أن تصرفاته أقنعت الامريكيين بصدق نيته هذه ، فماذا لو أن اختلس منهم غفلة ، فيفاجئهم بموقف يفيق بهم الى شـذوذ تلك الاوضـاع المتزمتة التى مازالوا بها متمسكين .. تعايش سلمى ارتضاه الجانبان ، فما معنى الابقاء ، بل الاصرار على التمسك بتلك الترسانات الصاروخية

والنووية المحيطة بالاتحـاد السوفيتى .. عشرات يضغطون بهـا وخزا فى الاجنـاب ... هاك اذن قاعدة صـاروخية « تحت ذقونكم » ... « وعليكم واحد ! »

وكأنى أزرى بالمداورات والمنـاورات السياسـية أو المحاوطات الاستراتيجية الى درك من دعابات فجة ، أو أنى أهون من شأن أحـد اساطين السياسة العـالمية فى العصر الحديث ؛ وحاشا أن يكون هذا قصدى .. وانما البشر بشر وان ارتقى نفر منهم الى مراتب عليـا من زعامة ، فيظنهم العامة من طينة غير طينتهم ؛ عقولا فذة خالصة ، قد أحصنت من سقطات ، منزهة من نزق ، فى منعة من عارض نزوات ..

ثم أن روح الدعابة متأصلة فى نفسية خروشوف لا يكاد يملك القدرة على مغالبتها وخاصة اذا ما أحس بنفسـه فى بسطة من ثقة وأمان ، لا يكاد يذكر اسمه حتى يتبادر الى الاذهان فيض من ملح ونوادر هو بطلها أو راويها ، أشهرها تصرفاته فى جلسات هيئة الامم منذ سنوات ، حين خلع فردة حذائه القديم وراح يقرع بها المنضدة أمامه ، استهجانا لبعض كلمـات ، بينما تشـع ملامحه بروح من سخرية ومرح ، وتلمع عيناه « بشقاوة » الصبى المشاكس ..

هى دعابة ولا شـك ، دعابة خطرة وربما فجـة ، اعتقادا منه أن التعايش السلمى أصبح حقيقة مسـلما بها ، وأنى لاتصور ــ فجميع ما أقدم انما تكهنـاتى الخاصـة ولكن الوقائع جميعـا لا تترك لى مجـالا الى غيرها ــ ان خروشوف لم يستبعـد أن يتجهم كنيـدى اذ يفجؤه الموقف ، ولكنه واثق ان سوف يكون مجرد عرض ، ثم يفيق كنيدى فلا يفوته مغزى اللعبة ، فتصفى القواعد أو على الاقل تلك التى فى تركيا واليونان مقابل الصـواريخ التى فى كوبا ــ وهو اقتراح برز فعـلا اذ اشتدت الازمة ــ اقرارا لواقع التعايش السلمى ، فعلا بعد قول .

ويذهلنى أن قد فات خروشوف تقدير الموقف من حيث بعض وطائد ارتكزت عليها مشـاعر الامن القومى فى أمريكا ، وما كانت لتفوته لولا أن تحرك بينما طغت عليه روح الدعابة ــ فانها حال كثيرا ما تسلب أشد الرجال حنكة اتزانهم وحصافتهم ــ فقذ قذف ، دون ما تريث فيتدبر ، بغلوة من سهم تكاد أن تكون موجهة الى مقتل ! فلاغرو أن كان رد الفعل حاسما صارما ، جياشا يتحفز الى مواجهة ، وعنف المواجهة النووية حتى !.. وليكن ما يكون !..

كثرة غالبة من المسئولين ومستشارى كنيدى المقربين رأوا ــ عفوا ! فلا رؤية اذ تغيم العـين بسورة من غل أو غيظ قد تعـارم ــ ألحوا به أن يضرب ، وأن يضرب فورا ، الا انه ــ صدق من وصفه بأنه « خليقة من سليقة سياسية » (١) ــ عـرف كيف أن يكبح من غلوائهم ، فيختار اسلوب محاصرة كوبا ، يحوم من حولها منذرا متوعدا ، وكأنه سيد

---

(١) وجدت من العسير ترجمة التعبير الأصلى a political animal فاحتفظ له بايجازه الشديد وايحائه العميق ، الذى يذهب الى أبعد مما وحى به نفس التعبير كما جاء به قلم (أرسطو) فى كتاباته .

الغابة تجاسر دخيل فيتهجم على المشارف الى عرينه ، ولكنه حريص مع كل على ألا يسد عليه المخارج ، الا يحصره الى مأزم مسدود .. مبدأ عريق من مبادىء السياسة الدولية : أن تترك لعدوك فرصة التراجع ، الا تدفع بظهره الى الحائط .. فان مع اليأس لسورة وأى سورة !

ثم هو التطبيق الرائع الفذ لنظرية « الوقفة » ، وقد مضت سنوات منذ أن شكل نورستاد تنظيمات القوات الامريكية المسلحة ، وصهرها تدريبا فتصبح اداة قادرة على الإضطلاع بما تتطلبه استراتيجيته الجديدة من مهام .

نقطة تحول خطيرة فى مجالات السياسة الدولية أفقدت نظرية التعايش السلمى توازنها الدقيق السابق ؛ فقد كشف خروشوف دون أن يدرى عن خفى الاستراتيجية السوفيتية ، كشف عن أوراقه فيطمئن الجانب الامريكى الى ان نواياه قد أصبحت سلمية فعلا ، منزهة عن كل ميل الى مخاطرة ، دون تقدير منه ان النظرية الامريكية تجاه التعايش السلمى كانت جد مختلفة ، اذ تسيطر عليها روح تلمس الفرص بغية اهتبال ، ليس لها من وازع الا حيرتها فى أين تكون قمة الخطر التى لن يتوانى الجانب السوفيتى ، ان هم تخطوها ، فيلجأ الى السلاح .

وهذى سحب الحيرة قد انقشعت فجأة ، فلا وازع ولا رادع الا أن يهدد الاتحاد السوفيتى فى عقر داره أو أن ينتهك ذمار دائرة الدول من حوله المنخرطة فى حلف وارسو ، وينظر الامريكيون الى تلك الاشتات من وقائع ، بدت أول الامر وكأن ليس بينها من روابط فيلمسون فيها تكاملا يتشكل بها الى صورة متماسكة واضحة المعالم ، اذن فقد كان الاتحاد السوفيتى صادقا كل الصدق فيما أعلن من التزام بمبادىء التعايش السلمى ، نابذا كل بادرة التجاء الى الاسلحة النووية ، وان الخلاف الذى اشتد أواره بينه وبين الصين ليس عقائديا كما أعلن تسترا على حقيقته أو متعلقا بصدمات حضارية أو منازعات جغرافية كما رسمه بعض معلقين — فتلك أوضاع تاريخية عميقة الجذور لم يئن بعد الاوان فتقدح شررا — انما هو صدع من حيث التخطيط الاستراتيجى وطلباته الملحة العاجلة ، اذ تنكر الاتحاد السوفيتى لوعود بذلها فيساعد الصين على الارتقاء الى مصاف الدول النووية ، تخوفا من مغامرة يقدمون عليها من خلف ظهورهم .

فقد قام « تنج هساو بنج » ، رئيس الوفد الصينى فى المؤتمر الحادى والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى المنعقد فى موسكو عام ١٩٦٠ فيتساءل متهكما : « وماذا لو وقعت حرب نووية . وماذا لو أبيدت شعوب بأكملها ! انها حرب ربما قضت على سكان البلاد المتقدمة صناعيا فتلك أهدافها الرئيسية ، ولكن لن يسعها افناء الشعب الصينى جميعه يكفى أن يبقى منهم النصف أو نصف النصف على قيد الحياة .. هم النواة القادرة على فرض النظام الشيوعى فيسود .. انها حرب مآلها ، حتى فى أسوأ ظروفها ، الى سيادة المبادىء التى تؤمن بها جميعا .. »

بقولها بلهجة من يدعوهم الى الافتخار بهـذا النصر المؤزر لمبادئهم ولو ضاعت فى سبيله أرواحهم جميعا ودمرت أوطانهم تدميرا .

ولست أعتقد ان كان فى نية الصين اشعال نيران الحرب الشـاملة بمجرد أن تضع يدها على السلاح النووى ، انما أن تصلب عـود كتلة الدول الشيوعية فى مواجهة التهديدات الامريكية المستمرة تلوح لهم بسلاحها النووى .. ابتزازا لمغانم اثر اخرى . أرادت الصين فيماأعتقد أن تشعرهم بأن الغرب هو المهدد بالضياع الشامل فى حالة المواجهة العسكرية فعليهم اذن أن يكونوا أثبت جنانا فأكثر حزما ، ولكن « تنج هساو بنج » خانه للاسف التوفيق فأشاع ذعرا قاتلا فى نفوس أعضاء المؤتمر ، وجلهم أعضـــاء أحزاب أوربية ، قاست بلادهم ما قاست من أهوال الحرب العالمية الثانية .

ونقض الاتحاد السوفيتى اتفاقه السرى مع الصين ، فكان الصدع ! واشتد الخلاف بين البلدين فتكشفت المكامن عميقة الجذور للتناقضات بينها ، حتى كادا أن ينقلبا الى عدوين لدودين ، بل أشـارت الظواهر جميعا الى أن خروشوف قد بيت النية لطرد الصين من حظيرة الكتلة الشيوعية ..

ذلك الخلاف ، تلك القطيعة ، بل ذلك الانشطار هو فى حـــد ذاته اضعاف خطير للكتلة الشيوعية ، التى كانت قد اتجهت فعلا ، فى ضوء من تصرفات خروشوف خلال أزمة الصواريخ الكوبية ، الى أن تنبذتماما فكرة الالتجـاء الى الاسلحة النووية ، الا أن يهدد الاتحـاد السوفيتى فى مقتل ! ..

اذن فقد كان خروشوف أيضا صادقا كل الصدق حين أعلن أن الصراع بين الكتلتين قد انصرف الى مجرد التنافس على رفع مستويات المعيشة.

مفهوم التعايش السلمى بالنسبة للاتحاد السوفيتى تحول اذن الى سياج أو الى ستار يسدل من حول مستقر مخزونه النووى ، فى حين تحولت به الولايات المتحدة الى أعلام ترفع أمام الحركة الدائبة لقوتها المسلحة بأسلحة تقليدية .. قمة الخطر عند الاتحاد السوفيتى ــ الحد الفاصل بين التعايش السلمى والحرب النووية ــ هو أن يحاول الجانب الآخر اقتحام حدود جغرافية معينة ، هى المشارف التى تكفل الامن لقلب القارة « الاوراسية » ، وهذا يعنى بالنسبة للولايات المتحدة ، ليس اعادة فتح الآفاق الى غير حدود ، وانما على الاقل أشاعة الحركة فيها فتنشط حيثما لقواتها العسكرية أو لاحتكاراتها الاقتصادية وجود (١) .

---

(١) بعد كتابة هذه السطور وقد أوشكت على الانتهاء من تحبير المسودة الأولى لهـذا المقال ، وافتنى أخبار التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا ، مساء العشرين من أغسطس مصداقا للرأى الذى أبديت ، فلا حاجة بى الى اقحام آية تعديلات ، ولكنى أريـد أن انبه الى انه حدث سوف يدفع الدول الكبرى حتما الى اعادة النظر فى تكتيكاتها فى ضوء من تطوراته وخاصة اذا ما أدى الى ردود فعل عنيفة أو الى عواقب اما غير متوقعة واما بعيدة الاثر ، أو كلتيهما معا .

وربما أن اتجه الاتحاد السوفيتى بعـد عدوان ٥ يونيو ، الى اعادة النظر فى هـذا الخلـــل الذى طرا على موازين التعـايش السلمى ، ولكنها أمور لا تبين لهـا آثـار الا بعد أمد ، حين يتكامل توفير الاستعدادات المادية الكفيلة باعادته الى نصاب .

ولقد عجبت فتحيرت اذضمتنى ، فى أوائل عام ١٩٦٦ ، ندوة الى عدد من المهتمين بشئون السياسة الدولية — عشرة أعوام بعد حرب السويس وأربعة بعد أزمة صواريخ كوبا — فأرى تمسكا بتلك النظرية ، وكأنها مسلمة مطلقة منزهة عن كل نقد ، القائلة بأن حرب السويس قد وضعت حدا فاصلا ، لا رجعة فيه — وهل تعود عقارب الساعة الى الوراء فى ضوء من حتمية حركة التاريخ ؟ — بين أساليب الاستعمار القديم وتدخلاته العسكرية السافرة وبين الاستعمار الجديد وأساليبه غير المباشرة فى اقرار السيطرة ، وتاد عنهم ان حركة التاريخ انما هي الى تواليف جديدة قوامها عديد من عناصر مستمدة من أساليب قديمة .

والاسانيد التى جوبهت بها هي نفسها التى كنا توصلنا اليها عام ١٩٥٦ توازن نووى رهيب فلا تجسر أى من الكتلتين على الاقدام على مغامرة ربما أزلفت بالعالم ، اذ تفلت الاعصاب ، الى حرب نووية ضروس . والمثل الصارخ الواضح ارتداد دولتين كبيرتين عن أرضنا ، منكسرتى النفس ، بفضل من مقاومة شعبية باسلة ، لم يؤازرها الضمير العالمى فحسب ، وانما التوافق أيضا بين وجهتى نظر الدولتين النوويتين الكبيرتين .. ولا توافق الا عن شعور راسخ مشترك بخطورة المغامرة فتندلع نيران الحرب النووية ..

نعم ، كان هذا صحيحا عام ١٩٥٦ ، ولكن طرأت من بعد على الموقف تحولات خطيرة ، وهذى الشواهد عليه حية ملموسة ، فأسوقها ، ولكنى أقابل بمن يهون من دلالاتها ، وكأنما هي رواسب سلوكية أو انتفاضات لاساليب الاستعمار القديم من « حلاوة روح » .

ربما انطبق قول القائل على التدخل الامريكى فى لبنان عام ١٩٥٨ ، فهو سابق على التطورات الحيوية التى فصلت ، مجرد رد فعل اذ فوجئوا بثورة « تموز » العراقية ، فلما أن تدبروا الامر أحجموا عن المضى بالمغامرة الى مداها ..

وما كان يحق لى ، ربما ، ان استشهد بالتدخل الامريكى فى سان دومنجو عام ١٩٦٥ ، فتلك منطقة لها أحكامها الخاصة ، اذ انطبعت العقلية الامريكية على تقديس نصوص مبدأ منرو .

ولكنى دفعت الى المناقشة بمثلين سافرين ، حرى بمن أراد ألا يعتصم بموئل من نظرية ، عفت عليها تطورات الاحوال أن يعيد تقليب الامور : التدخل الثلاثى ضد الثورة الكونغولية فى يناير من ١٩٦٥ ، وبعده بشهر واحد ، وكأنما هو التحرك السريع تطبيقا وتأكيدا لاركان نظرية استراتيجية جديدة .. بدء الغارات الجوية على أراضى فيتنام الشمالية ..

فى يناير من ١٩٦٥ تهاجم ستانلى فيل — كيسنجانا الآن — بقوات مظلية بلجيكية ، تحملها طائرات أمريكية ، أقلعت بها من قواعد بريطانية ! وفى فبراير — بعد أشهر قليلة من تلك الذريعة التى اختلقت فى خليج تونكين — تساقط القنابل من القاذفات الامريكية على فيتنام الشمالية —

البلد العضو فى الكتلة الشيوعية ـ ومتى هذا ؟ وهل بعد هذا دلالة ! بينا كوسجين فى زيارة رسمية لهانوى !..

ارتداد سافر الى أساليب الاستعمار القـديم بتدخلاته العسكرية السافرة ، متحدية الرأى العـام العالمى فى وقاحة وتبجح ، بل متجاسرة عبر حدود التوازن النووى الرهيب ! فلا شك اذن أن قد جـد على الظروف الدولية جديد ، ولم تعد حرب السويس حدا فاصلا كما كان حريا بها أن تكون ! ..

وانها لامور لم تخف على قيادتنا السياسية ، فى حرصها البالغ على تنسم رياح التغيير فى أفق الاستراتيجية الدولية ، ولكن غفلت عنهـا للاسف جمهرة من مثقفين من المهتمين بشـئون السياسة الدولية ، فقصروا عن توعية الرأى العام المحلى بأبعاد ذاك التحول الخطير ..

تحول خطير ارتبط بمفاهيم لنا حيوية ، لم تنعكس لها آثار فى تلك العقول المهيمنة على القيادة العامة لقواتنا المسـلحة ، فقد ظلت على اعتقادها الراسخ بأن عصر التدخل الاستعمارى السافر قد ولى ، وحيث ـ وتلك مسلمة أخرى خطيرة استناموا لها ـ أن اسرائيـل لن تجرأ أبدا على مهاجمتنا وحدهاودونمعاونة صريحة مباشرة من الدولالاستعمارية الكبرى ، أو احداها على الاقل فعلينا اذن بتلك « البطيخة الصيفى » لا هجوم من اسرائيـل ! بل ولا جرأة لهـا على التفكير فيه حتى .. مهما كان ! ..

حتى الثالث من يونيو عام ١٩٦٧ ، ورغم تحـذيرات رئيس الجمهورية ظلت قيادتنا العسكرية فى غفلتها سادرة ... وهذى تقارير عن مجموعات كبيرة من مدرعاتنا أرهقت بالمنـاورة المستمرة بطول الجبهة وعرضها ، ليالى وأياما ، حتى فجر الخامس من يونيو نفسه ، فاذا ما وقعت الواقعة وجدت نفسهـا عاجزة عن الحركة ، مشلولة ، اذ تآكلت جنازير عجلها ، خذيئة من أهداف لنيران الاعداء ، لا قدرة لها حتى على محاولة الدفاع وقد كلت عيون « طواقمها » وأوهنت طاقاتهم من فرط تطواف .

تصرفات من القيادة العامة لاتفسير لها الا اعتقاد راسخ بأن العدو لن يتجاسر فيهاجم ، فلنزد اذن من الرهبة التى فى قلوبهم بهيجاء من صليل وقعقعة ، فلم نجن الا وهنا أصاب العضلات التى استعرضنا !

ونظرة الى تلك المسلمة التى ذكرت ، استنمنا لها فأودت بنا .. فمن أين جاءهم ان اسرائيل لن تهاجمنا الا اذا شاركتها فى عدوانها علينادولة كبرى ؟ ..

وكأنما من الضرورى أن تكون المشاركة سافرة علنية !

لم تحاول قيادتنا العسكرية التعمق فى دراسة حرب السويس ، وانما علق بذهنها أن بن جوريون رفض باصرار التورط فيها الا أن يحصل على وثيقة تضمن له اشتراك قوات بريطانيا وفرنسـا الى جانبه ، وقواتهما الجوية بالذات ، حماية لاجواء اسرائيل .

وقد كان من الطبيعي ، اذ تكشفت أسرار التواطؤ الثلاثي ، أن يضغط معلقونا السياسيون على هذه النقطة بالذات ، فيعلم الرأى العام العربى بأبعاد المؤامرة ، ويطمئن ضمنا الى قوتنا الذاتية ، كرادع لاسرائيل ، ولكن هذا التركيز فى التعليق ، بل هذا الافراط الذى جاوز الحدود الموضوعية ، رسمها لنا حقيقة قائمة بذاتها ولذاتها ، وليس كما كانت فعلا مجرد وضع أملته الظروف حينذاك ، فتسدر بعقول قياداتنا العسكرية الى طمأنينة خادعة ، ويهملون التعمق فى دراسة مرتكزات الخطة الاسرائيلية كما كانت ، سعيا الى استكناه اتجاهاتها المحتملة فى المستقبل ، وكأنما الظروف من حولنا ثابتة مستقرة على ماهى عليه الى أبد الآبدين ، بنجوة من رياح التغيير التى يدفع بها جموح التقدم التكنولوجى ، مكتسحا أمامه كل قديم كأنما الاعاصير .

أسباب جوهرية دعت اسرائيل الى الاصرار على أن تشاركها دول كبرى فى مقامرة السويس ، أولها عامل استراتيجي حيوى — وسنرى كيف أمكنها فى عدوان يونيو أن تدرأ من خطره بالتخطيط له — تخوفا من القوة التدميرية لسلاحنا الجوى اذا ما وجه الى أهداف مكتظة بالسكان — ولا مفر ، فالرقعة الجغرافية لاسرائيل جد صغيرة — فيتحتم اذن الاعتماد على قوة من خارج قادرة على أن تشل طائراتنا عن العمل ، ثم بعد ذلك عامل نفسانى لا يلتفت اليه الا من عكف على دراسة الشخصيات الاسرائيلية الحاكمة — دراسة لاغنى عنها بأية حال — فان الفاصل بين شن الحرب أو الركون الى السلام ، حتى فيما يتعلق بالدولتين العملاقتين ، انما شعرة دقيقة متعلقة بقرار يتخذه آخر الامر شخص فرد — مهما تضخمت أكوام التقارير ، وتنازع الرأى فرق من مستشارين — فى ضوء من موازنة بين كفتين ، قرار مرتبط أشد الارتباط بتكوينه النفسى بعد كل ، وعلى الرغم من الصورة البطولية التى حيكت حول بن جوريون ، وكأنه شخصية أسطورية منتزعة من أسفار الاولين ، مغوار مقدام ، نعم ، ربما هو كذلك اذا ما حزم أمره ، ولكن دون ذلك ، وفى تلك الاوقات العصيبة التى تسبق اتخاذ القرارات ، فهو فريسة للمخاوف والشكوك ، متأرجح ابدا بين آماد من تفاؤل مطلق وتشاؤم حالك بهيم ، صورة مناقضة تماما لاولئك الرجال الذين انتقلت اليهم مقاليد الامور ، حين أعيد تشكيل الوزارة الاسرائيلية ، فيدخلها موشى ديان ومناحم بيجين ، أولهما لا يؤمن الا بالحرب ، والحرب الخاطفة المفاجئة — الحرب الوقائية كما يسميها ولكنها فى الحقيقة الهجوم الغادر الآن وفورا ! وثانيهما سفاح ، نزاع بحنين الى ذكريات مذبحة دير ياسين ...

ثم انهما لم يقفزا الى الحكم عنوة ، وانما أتى بهما وقد اطمأنت المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية — فلا شك ان مثل تلك القوة الموجهة لها وجود ، والشواهد على ذلك لايتسع المجال هنا لتفصيلها — على ان قد أعدت العدة لمواجهة اسوأ الاحتمالات ، أن خانها التوفيق فيما خططت انتزاعا للمبادرة .

هى المؤسسة السرية المهيمنة على الصهيونية العالمية ، وليست المؤسسة العسكرية الاسرائيلية كما قيل ، اذ ليست هذه الا مجرد فرع ضمن فروع

عدة ، يؤتى بأفرادها أو ينحون عن مراكزهم حسبما يقتضى الحال، فلو أن راجعنا المخططات الرامية الى مساندة اسرائيل لاذهلنا اتساع نشاطها على المستوى الدولى جميعا : شاملا لاتجاهات شتى ، تم التنسيق بينها فى دقة بالغة .

اتجاهات لو أن تعهدتها حفنة العسكريين لانصرفت اهتماماتهم عن صميم واجباتهم ؛ فتنحدر الحال بالقيادات الاسرائيلية الى مستويات كالتى رزئنا بها ، بل اتجاهات تقصرعنها ، ليست قدراتهم فحسب ، وانما قدرات كل من قيدت تصرفاته بقيود يفرضها الانتماء الى جنسية معينة، فلو أن كان جولدبرج ، وهو من غلاة الصهيونيين ، اسرائيلى الجنسية ، لما أمكنه أن يسدى الى اسرائيل ماأسداه وهو مندوب امريكا فى مجلس الامن ، ومثله البارون روتشيلد ، فلولا جنسيته الفرنسية لما كان له هذا الاثر فى بلبلة الرأى العام الفرنسى ، وقس على ذلك ..

الركن الركين فى تخطيطات الصهيونية العالمية ان قد نجحت ، بأساليب مستترة خبيثة من عمل دائب متصل ، فى تهيئة الضمير العالمى ، غداة العدوان ، فلا يسكت فحسب عن احتمالات تدخل الدول الكبرى ، بل نفثت فيه بذور هستيرية فيطالب ، بل ان يلح عليها بالتدخل اذا ماتطورت العمليات لغير صالح اسرائيل : وهذى حليفة اسرائيل الكبرى ، متربصة متأهبة بأسطولها السادس ، يقتحم المياه الاقليمية العربية ويجوسها مزمجرا متوعدا ، بل يكاد أن ينساح زحفا الى سواحلنا من فرط لهفة .

ولكن ماذا عن القوات الجوية المصرية ، وقد أصبحت أقوى من ذى قبل اضعاف اضعاف ! انه الخطر القادر على تهديد كيان اسرائيل بمجرد أن تندلع شرارة الحرب ، انه الخطر الذى لايسمح للتدخل الاجنبى ، كما رسمت خطواته ، بفسحة من وقت ، انه الخطر الذى كان أقض مضاجع بن جوريون فيما مضى فيصر على الحصول على عون خارجى مباشر ليشل من فعاليته ابتداء .

خطر داهم ! وأخطر منه التغاضى عن مواجهته ، ولا قبل لهم به الا بتدخل من خارج .. معادلة عويصة أقضت تفكير رجالات اسرائيل منذ ١٩٥٦ ، ومن هنا كان التخطيط لاستغلال طاقات تستمد من تدخل أجنبى يغلف بتستر فلا تبين له معالم .

اتجاه متوافق تماما مع المنطق الاسرائيلى فى تحالفه الوثيق مع الامبريالية الامريكية ... ولكن قياداتنا العسكرية غفلت عنه ، بل لم تعن حتى بدراسة الفكر الاستراتيجى الاسرائيلى عسى أن يعرض لمخيلتها عن احتمالات هذا الامر خاطر .

كلا ! بل هى صورة قاطعة من « أبيض أو اسود » ... اسرائيل لن تجرأ على المغامرة بالهجوم دون مساعدة أجنبية مباشرة ... وجوية فى المقام الاول ! وقد رفض الرأى العام العالمى هذا الوضع فأدانه عام ١٩٥٦، هكذا كان وهكذا سوف يكون ... « وبلا قلبة دماغ » .

ولكن العـالم كان قد انفعل اساسا ضد غطرسة الدولتين الكبيرتين ، وليس «حق» اسرائيل فى الرد على حملات الفدائيين (كذا !) و «البركة» فى قصور .. بل فى الجوامح العشوائية التى الجت بها وسائلنا الاعلامية فهنيئا لقيادتنا العسكرية و « بطيختها الصيفي » . فما أحلاها مذاقا فى الامسيات حين تصفو جلسات الانس والفرفشة وقد انعدل المزاج :

أما على الجانب الآخر ، ففيض من معلومات تترى ، وخاصـة تلك المستقاة من خرائط تجسسية دقيقة .. مواقع أجهزة الرادار وتفصيلات عن انواعها ومدى كل منها وزواياها الراصـدة ، ومن ثم تحديد صارم للثغرات التى بينها ـ مخاضات ضحلة ، أى نعم ! ولكن هاك هى مراغا لمن عرف كيف أن ينهز الطريق عبرها ، ثم مواقع مطاراتنا ؛ متخمة بصنوف وصفوف من طائرات متراصـة ، براقة بألوانها الفضية فلا تمويه ، دون ماكفاية من حماية أو وقاية ، فاننا مولعون بمركزة السيطرة ، وكأنما ليس من هم لاى من قادة محطاتنا الجـوية سـوى المبـاهاة بما تحت امرته . فالاهداف اذن امام اسرائيل مكتظة بالصيد السمين الثمين . . .

ومن هنا كان الاعداد المتواصل ، الممتد على مدى من سنوات ـ وقد رسمت فى أماكن متفرقة من صـحراء النقب نمـاذج تفصيلية لقواعدنا الجوية جميعا ـ بالتدريب على طرائق الهجوم ، وأفضل وسائل التدمير وأنجعها أثرا ، تدريب شاق متصل لايفرض على الطيارين الذين هم قوام القوات الجوية الاسرائيليـة فحسب ، وانما ـ بفضل من تلك النظريات التى هى من مقومات الوجودالاسرائيلي ـ على كل طيار يهودى يؤتى بهمن مغارب الارض ، أكثرهم ضـبـاط عاملون فى الجيوش الاستعمارية ، فى فترات منتظمة ، يؤدى كل منهم فريضة هى عليه موقوتة ، فاذا ما أزفت الساعة اسـتدعوا على عجل فينخرط كل منهم فى مكانه المعـد من اطار مرسوم .

معلومات تفصيلية دقيقة أمدت بها اسرائيل بسخاء ، ثم اذ تقع الواقعة تداخلات الكترونية تشوش على الاتصال حتى بين هؤلاء النفر من طيارين مصريين تمكنوا بعد الضربة الأولى القـاصمة من استنقـاذ بضع طائرات أفلتت بقدرة قادر من سيل الطير الابابيل التى ـ يا لسخرية الاقدار ! ـ أمطرتنا بحجارة من سجيل !

كانت الضربة الاولى قاصمة ، وقيـادتنا العامة فى حالة من ذهول ؛ لاتجد من متعلق الا تلمس فسـحة من وقت فربما أن جاءتها نجدة من السماء أو أن تقع معجزة ما . . . فتلجأ الى أفدح أخطائها جميعا ، اذ تخفى حقيقة الموقف عن القيادة السياسية !

وفى لحظة ظنتها من تجل . ومض فى ذاكرتها أن انسحاب قواتنا عبر القناة عام ١٩٥٦ قد انقذ الموقف حينذاك . . . حقيقة أخرى استندت الى سالف ظروف وملابسـات ، فاختزنتها بعض عقول الى ثبت من مسلمة مطلقة ، سحرية الاثر ، أكيدة المفعول اذا ماتأزمت الامور .

ولكن أوامر الانسحاب عام ١٩٥٦ صدرت بينا قواتنا لم تكن قد حشدت هذا الحشد الذى كان عام ١٩٦٧ فى سيناء ، اذ احتفظ أول الامر بجلتها

لمواجهة احتمالات تدخل بريطانى فرنسى عقب تأميم القناة ، فلما أن تحركت اسرائيل ، وكأنها أقدمت على المغامرة وحيدة دون شريك ، بدأت قواتنا فى عبور القناة الى سيناء ، معتمدة على ألويتنا المتقدمة ، قليلة العدد ، المرابطة على الحدود فى تعطيل الزحف الاسرائيلى ، ريثما يتسنى لنا الاحتشاد فالتخطيط لمواجهته فى قلب شبه الجزيرة ، عند منطقة بير روض سالم بالذات .

ثم اختلت مخططات المؤامرة الثلاثية ، فمن ناحية الحاح بل توسلات اسرائيلية الى بريطانيا — فالتهديد الجوى المصرى متفاقم رغم تطعيم اسرائيل بعدد من أسراب جوية فرنسية — أن تسارع بضرب المطارات المصرية فتدمر طائراتنا على الارض،ومن ناحية اخرى حرص الاستراتيجية البريطانية على التريث حتى ننتقل بجيوشنا عبر القناة ، فتحصر ولا تفلت من اطباقة فكى الكماشة .

ولكن لهوجة الفزع غلبت اناة التخطيط ، فيتعجلون اصدار الانذار المشهور ، وتبين أبعاد التواطؤ ولما تكن كتلة قوتنا الضاربة قدعبرت ، فاذا ماصدرت الاوامر عجلى بالانسحاب لمواجهة الخطر الاكبر ، انتظم الامر لقواتنا — وقد كانت قليلة العدد نسبيا ، ثم انها بعد بعيدة عن مواقع العدو الاسرائيلى ، غير ملتحمة معه — فتعود من حيث أتت ، دون أن تعتسر بتزاحم أو احتشار عند المعابر ، ثم يسد مجرى القناة !

وما أدراك بأهمية القناة حينذاك ، وعند هاتين الدولتين المعتديتين بالذات ، بل وعند البلدين القطبين ، اللذين اذا ما اتفقت عاصمتاهما فى الرأى ، فأمرهما نافذ على الحلفاء والاعداء سواء بسوء .

أن تسحب اذن القوات ... وان يسد مرة أخرى مجرى القناة !

قرار خطير ، خطورته البالغة فيما انطوى عليه من خرق رأى !

المبدأ الثابت للاستراتيجية المصرية القويمة ، هو أن تدافع مصر عن القناة ، فيكتب لكلتيهما السلامة ، وليس العكس فتضيع هذه وتلك !

المبدأ القويم ، كما أقول ، ومع ذلك فالخطر كل الخطر التشبث به على علاته مسلمة مطلقة ، فقد رأينا ، عام ١٩٥٦ ، كيف تضافرت علينا ظروف شاذة أجبرتنا على المفاضلة بينهما ، فكان القرار بالتضحية بالقناة فداء لمصر ، بل ان ملابسات الموقف الدولى أعطتنا ، اذ ضحينا بالقناة ، سلاحا نهدد به مقدرات دولتى العدوان الكبيرتين فى الصميم ، فكانت نجاة مصر المنطلق الى استعادة القناة .

أما فى يونيو ١٩٦٧ فقد انطوى قرار الانسحاب على التضحية بهما جميعا .... وحفاظا على ماذا !

قرار اخرق ، زاد من خرقه نزق استحوذ على صاحبه فراح ينفث به كيفما اتفق الى كل من تهيأ له الاتصال به من وحدات ، وأكاد أجزم أن كان مسارعا به الى تلك التى كانت أقرب الى القناة ، اعتقادا منه —

فان العلم « نورن » ! — ان تلك هى أسرع وسائل الانسحاب ، الاقرب فالاقرب وهكذا على التوالى ، فيا له من منطق !

وأخيرا ، ثم أخيرا بعد عدد من ساعات ، والحرب الحديثة انما حسابها بكسور من ثوان تعلم قيادتنا الميدانية بالقرار الخطير !

قرار خطير وأخرق مافيه ان لم تكن اليه حوجة أو ذريعة سوى سانحة من جهالة ارتقت به فى ذهن صاحبه الى مسلمة استراتيجية أصيلة لا يأتيها باطل ! وغاب عنه ، او انه لم يع قط ، أن القرارات الخطيرة انما هى ألمعية فكر ينفذ فجأة الى جوهر الامور ، اذا ما اعضلت ، بفضل من دراسة شاملة سابقة وعمق تمحيص ، وشتان ما بين ظروف عام ١٩٥٦ وتلك التى لابست الموقف فى سيناء فى أوار شمس يونية من سنة الشؤم تلك ، ١٩٦٧ ، حين تعلقت مصائر الوطن الغالى بسمادير ذهن ملتاث ، « هلوس » بأوامر انسحاب ، راح ينفث بها الى كل اتجاه ، فيعلم بها الاعداء فى تصنتهم الدائب على وسائل الاتصال قبل أن تفجأ بها ، فتذهل لها قيادة القوات فى الميدان ! ..

اخطر ما انطوى عليه هذا القرار من اخطاء فادحة هو جهل صاحبه المطبق بأساسيات عمليات الانسحاب ، وخاصة فيما يتعلق بالمدرعات فى حروب الصحراء حين تكون فى حالة اشتباك فعلى مع عدو مهاجم ، اذ يتحتم عندئذ على الوحدات جميعا أو يكاد ، المتناثرة بطول الجبهة وعرضها ، أن تخضع فى تحركاتها لحساب دقيق أى دقة ، فتتعاشق حركة كل منها على حدة مع الصورة التكاملية لمجموع التحركات الاخرى ، ومتوقفة الحركة التالية لاى منها على ما أحرزت زميلاتها من نجاح ، أو ما يكون قد أصابها من فشل فيتدارك .

انها أشبه ما تكون بحركات النغم المتآلف وترابطاته الايقاعية المتشابكة فى المتتابعات الموسيقية ، الا انها ليست هنا نقلا عن « نوتة » أحكمت تفاصيلها فيلتزم بدقائقها القائد فى الميدان ، وانما هى خطوط ايقاعية عريضة ، تجابهه خلال التنفيذ بنواشز مفاجئة ، فيقابلها فورا ، وبألمعية من بديهة ، بابتداعات — وكأنما هى مرونة تنغيمية فائقة — فيعود بهذه التنويعات المبتكرة الى الخط الايقاعى الاصيل ، أو قل انها عملية خلق فورى لتوافقات من ايقاعات مركبة متغيرة ، ولكنها مشدودة أبدا فى سعيها الى تحقيق آية من خاتمة ، هى الهدف المنشود .

انها عملية أشد ما تكون حاجة الى سيطرة مركزية صارمة — ميدانية حاضرة وليس متوارية بعيدا عن خطوط القتال — ثم الى وحدات قياداتها على علم وثيق مسبق بخطة الانسحاب ، بل بعدد من خطط انسحاب تبادلية — فليس بوسع كائن من كان التنبؤ بأى الاسباب سوف تفرض ضرورة الانسحاب — فاذا ما حزم القائد فى الميدان امره ، اخطر قيادات الوحدات بالاسم الرمزى للخطة التى اختار تطبيقها ، محكما فى الوقت نفسه قبضته على زمامها جميعا ، موثقا بها اتصالاته كل التوثيق فيواجه تطورات الموقف المفاجئة ، أولا فأولا ، بحساب من دقائق وثوان .

ومن حق قواتنا المقاتلة علينا ، وانصافا لها ، التوقف قليلا فنتساءل عما اذا كانت القيادة العامة قد تدارست الموقف من قبل مع القيادة الميدانية ، فتعد ولو خطة انسحاب يتيمة يلجأ اليها اذا ما أحوجنا اليها الحال ، كما تفعل جميع القيادات منذ أن أصبح للحروب أصول ، فأقول فى ضوء مما رأينا وعانينا أنى اشك فى هـذا كل الشك ، اذ لم يخطر للقيادة العامة قط أن سوف يعوق جيوشنا عن التقدم عائق ، بل أن قد تملكهم ايمان راسخ بأن تلك الهالة التى أخذت عليهم وقتهم فيحيكونها من حولها ــ أقوى قـوة ضـاربة فى الشرق الاوسط كما كانوا يقولون ، المدعمة بصواريخ موجهة افتتنوا : ليس فى اعدادها للعمل الجدى ، وانما فى اطلاق الاسماء عليها وفى طرائق عرضها أثناء الاحتفالات الرسمية المهيبة ــ هى وحدها الرادع ، كفيل بارهاب العدو فلا يتجاسر علينا .

ثم أن عمليات الانسحاب ، حتى فى تلك الحالات التى يكون قد أحكم التخطيط لها مسبقا ، هى أخطر ما يمكن أن يواجه به قائد فى الميدان ، وخاصة اذا كانت الحرب حرب حركة على الارض العراء ، انها المحك الحقيقى لقدراته ، فكم من اخطاء يطغى عليها فيخفيها نجاح طارىء فى حالات الهجوم ، أما فى عمليات الانسحاب فان الزلة ، ان لم تتـدارك فورا تنقلب الى كارثة محققة .

النجاح الطارىء الذى تحرزه وحدة من وحدات جيش مهاجم ربمـا أصابت عصبا حساسا أو أشاعت عند العدو ذعرا مفاجئا ، أما النجاح الذى تصيبه وحدة من وحـدات جيش منسحب فلا بد لهـا ان تحقق الهدف الذى رسم لها ، ثم حذار أن تجاوزه ، فى سعى مجرد الى مسابقة زمن ، أو وصول الى موقع ربما بدا لها أفضل أو أمنع ! نعم ، فان سعيها الى مزيد من سـلامة ، من حيث ظروف زمان أو مكان ، خارج دائرة التنسيق الصارم بينها وبين أوضـاع الوحدات الزميلة ، ربما أفقد هذه دون أن تدرى تلك ، مرتكزا هو ضرورة لها لازمة ، فتعجز اذ يحين دورها عن الاضطلاع بما نيط بها من مهام ، وهكذا بالتبادل وعلى التوالى .

ويمكن أن يقال بصفة عامة ، وفى صورة من تبسيط ، ان أول واجبات القائد حين يتقرر الانسحاب ، هو توجيه عدد من وحداته الامامية الى حيث الخطر ، فيدفع بها الى هجمات شبه انتحارية ، كسبا للوقت ، بينما يتحتم على مؤخرة جيشه أن تستمسك بمواقعها فلا تتزحزح عنها مهما كانت الظروف ، الى أن تتعداها قوات زميلة ، وظيفتها احتلال مواقع دفاعية الى الخلف منها فاذا توطدت فيها أصبحت هى المؤخرة الجديدة ، ومن ثم مرتكزا لانسحاب تلك القوات التى كانت من قبل هى المؤخرة .

مؤخرة الجيش اذن ، اذ تطفر بها الى الخلف وحدات تلو أخرى فى اتساق تبادلى متواتر ، هى الركيزة الوطيدة للجيش المنسحب : ليس فقط من حيث انها مستلزمة مادية لاغنى عنها ، ولكن لانها أيضا من دعائم الروح المعنوية ، والتى هى عرضـة لان يعصف بها مجـرد الشعور بأن الجيش قد فرض عليه التخلى عن مواقعه الاصـلية : تراجعـا أمام هجمات لا قبل له بأن يثبت فيتصدى لها ، أما فى معركتنا هذه فأى هزة نفسية ، حرية بأن تقوض الروح المعنوية من أساس ، اذ أدخل فى روع

قواتنـــا ، اذا ما انتوت ، فالطريق الى تل أبيب أمامهـــا منبسط ، بل بلغني اذ عدت الى الوطن ، أنه في نفس الوقت الذى تحول فيه جيشنـا الى حطام ، خرجت بعض صحافتنا على الملأ بعناوين ، زائرة هادرة بأن قواتنا تطوى الارض طيا الى مشارف كبريات المدن الاسرائيلية ، فأى فجـوة تلك .. أى هوة بين ما نقول وبين ما هو واقع ، كما تعودنا أن نفعل في اللافتات التى ترفع !

الا أن العبرة في حروب الصحراء ، حيث لا قيود جغرافية أو تكاد على الحركة ، ليست في الحفاظ على سلامة مؤخرة الجيش وحسب ، وانما أن تؤمن الاجناب أيضا ، فهي من مواطن الخطر ، هـذا الى عـديد من تفاصيل أخرى مرتبطة بقدرات الجيش المهاجم ، وخاصة اذا ما انعقدت له السيطرة على الاجواء ، فيتحتم أن تكون الدفاعات متناثرة وان ترابطت من حيث دقة التوزيع ، متناثرة .. فهي ليست أهدافا سهلة لطائرات العدو ، ولكنها مترابطة بأن تكون مجالات نيرانها الدفاعية متقاطعة فلا يتأتى للعدو التركيز على أى من المواقع بغية اختراق الجبهة دون التعرض لنيران متألبة تحدق به فتأخذه من كل جانب .

ثم ان التفوق الجوى للعدو ــ خاصـة اذا ما كان كاسحا كما رأينـا ــ يفرض على القوات المنسحبة أن تقصر تحركاتها على ساعات الليل الا فى حالات نادرة من ضرورة قصوى ، أما نهارا فعليها أن تثبت فى استحكاماتها الدفاعية ، مدججة بأسلحتها المضادة للطائرات ، والا حصدت حصـدا فى الارض العراء ، وأن تقابل مدرعات العدو ، أينما تجمعت سعيا الى اقتحام مواقعها ، بهجمات « انتحارية » تعويقية ، تكاد أن توهم العـدو بأن قد قررت التحول الى الهجوم المضـاد ، وأن تتخذ تلك الهجمات طابعا « التحاميا » ، يفقد طائرات العدو القدرة على التمييز ، فتحجم عن الضرب والا قذفت قواتها من ضمن .

فاذا ما ولى النهار ، عادت القوات الى « لعبة القفز » ، تطفر بالوحدة فوت أخرى ، ليس كيفما اتفق أو سعيا الى قطع ما يتيسر لطاقاتها من مسافات ، وانما بحساب وفى دقة تخير لمواقع جـديدة ، حريصـة كل الحرص على أن تدخر قدرا من جهدها وقسطا من جهمة الليل لاعداد تلك المواقع وتحصينها ، حتى اذا بزغ الفجر جابهت العدو بشبكة جديدة من استحكامات دفاعية ، متآزرة متساندة ، قادرة على التصدى مرة أخرى لاى هجمات ، جوية كانت أم برية .

هذا من الناحيـة النظرية ، فاذا تصفحنا الواقع الجغرافى وجـدنا حقيقة كبرى تفرض نفسها فرضا على أى مواجهة عسكرية بين اسرائيل ومصر ، الا وهى القيمة الاستراتيجية بالغة الاهمية لشبه جزيرة سيناء، انها عبء فادح على كاهل أى قوات مهاجمة ، أرض عراء لا مأوى فيها أو يكاد ، الا أن تعد خطوة تلو أخرى ، ولا مراكز تموين ، من وقود لمركبـات الحرب والنقل ،ضرورة لازمة منذ أن كانت الحروب الحديثة ، ومن أطنان القذائف استعواضا لما تستنفده شراهة المدافع تحـركها آليـة الالكترونيات . ثم ما ليس منه بد منخزائن للماء ، ريا لآلاف منرجال ، كميات ضخمة تنقل نقلا عبر المسافات الطوال وخلف الجيوش المنطلقة

الى أمام ، والا باخت حـركتها أو أوهنت ، أو ان يصـيبها الشـلل آخـر الامـر .

ثم أنها أرض حبتها الطبيعة بمفاتيح جغرافية ، آخرها وأحصنها تكاد أن تتشكل فى صورة خط متصـل الحلقات ـ من ممر متلا جنوبا الى سبخات البردويل شمالا ـ خط يوازى مجرى القناة بعض الشىء ، بعيدة عنه مع ذلك بما يكفل نصابا من أمن ، فهى خط دفاعى أكثر من مثالى ، عدد من مضايق وشعاب ، بعضـها خوانق رهيبة ، تعطى لمن استحكم فيها القدرة على السيطرة على التحركات ، أيا كانت ، من مصر واليها .

انها معاقل لايفرط فيها أى ذى عقل أو ادراك ، حتى يتم سحب جمة القوات عبر القناة ، لو أن كان للانسحاب عبر القناة ضرورة !

الا أنه لم يكن للتضحية بالقناة من الازمة سـوى تلك التهيؤات التى استلهمت ، وكأنها الوحى ، من واقع ارتكز على سالف ظروف لم يعـد لها شبهة من وجود .

لم يع صاحب القرار الا أن انسحاب ١٩٥٦ استخلص لنا من براثن هزيمة مرتقبة سلاحين رهيبين : انسداد القناة فيضطرب تفكير الدولتين الكبـيرتين المعتديتين اذ يتملكهما جـزع قاتل امام احتمالات استنزاف مواردهما ، فليس أمامهما الا الاستعاضة عن نفط الشرق الاوسط بآخر لايباع الا فى سوق الدولار . . ومن ناحية أخرى فقـد تهيأ لنا اسـتنقاذ الكتلة الكبرى من قوتنا الضاربة ، وزعت على أحياء المدن المواجهة للجبهة فتتحول الى أداة رهيبة قادرة ، اذ تربض عند تقاطعات الشوارع الضيقة الى تفتيت الجيوش الغازية ، بأن تفرض عليها نوعا من حرب العصابات ـ هى حرب الشوارع ـ تبعثر قواتها وترهقها ، بل وتسلبها فرصة احقاق القصد الذى اليه تطلعت ، لا بديل لها عنـه فى ظل الظروف الدوليـة السائدة ، ألا أحراز النصر سريعا ، وخلال ايام ، والا فقدته .

أما قرار الانسحاب هذا ، بل قل تلك الاستصراخات الموجهة الى كل صوب وكيفما اتفق ، متخطية القيادة فى الميدان ، متراوحة بين جؤار أو وحوحة الحاح ـ اذ رفض الإذعان لسخفها بعض قادة وحدات ـ فقـد صنعت بتلك الروابط الخفية التى هى قوام كل جيش (١) ، فتحيله من قوات نظامية متماسكة الى أشتات يشدها الذعر ، فلا هم لها الا محاولة الافلات من مصير بدا وكأن قد بات محتوما ، فريسة سهلة لقوارع عدو تحدوه شراسة تصميم ، فيطحن بهم الارض طحنا ، وكأنما ذراوة خبث مطـروق . .

أما عن ذلك السلاح الآخر المزعوم ، انسداد القناة ـ وانه لفى حقيقته ذو حدين ـ فقد انقلب علينا وعلى أصدقائنا بخسران .

---

(١) أهمها الروابط النفسية ، بدونهـا يفقد الجيش روحه المعنوية ومن ثم كيانه ، ومن اراد الوقوف على ماهية تلك المقومات فقد عرض لها سيجموند فرويد فى الفصل الخامس من كتابه عن « علم النفس الجماعة وتحليل الانا » وقد ترجم الى عدة لغات .

كانت الدول الغربية قد وعت دروس عام ١٩٥٦ ، فتتجه وئيدا الى استحداث الوسائل التى تعينها على تجاوز العواقب التى ربما واجهتها مرة أخرى : الناقلات البترولية الضخمة القادرة على نقل النفط ، دون ما زيادة مرهقة فى التكلفة ، من حول رأس الرجاء الصالح ، متجنبة مجرى القنـــاة .

وعاونهـا بعض الشيء فى مسعـاها هذا ظهور الكشوف البترولية فى منـاطق أخرى جديدة ، خطوط المواصلات منها واليهـا بمنأى عن منطقة القناة ، لا يضيرها لو أن لم توجد أصلا ــ كما فى ليبيا وأقليم بيافرا ــ أو لا تعوزها اليها حاجة ملحة ، فلا زيادة مرهقة فى أعباء التكلفة ــ كمـا فى بروناى وغيرها من مواقع متناثرة بامتداد جزر الهند الشرقية ..

فهل كان أمام قيادتنا العامة كشوف احصائية بالحـركة البتروليـة وبجغرافية مواصلاتها المتغيرة ؟ اشك فى هذا ، ولكن بعضا من حسن ظن فأقول مستدركا أن ربما .. ولكن تطورات الاحداث تقطع بكل أسف أن ما كان بمقدورهم ان يعوا منها شيئا ، ولو دفع بها دفعا تحت أنظارهم المتحيرة بين عـديد من نوازع وتطلعـات لا تمت الى صميم واجبـاتهم بسبب .

انها اسلمت دون ان تعى لاعدائنا سلاحا رهيبا ، لايتمثل فى احتـلال العدو لجزء عزيز من أرض الوطن فحسب ، وانما ان يصل بمواقعه حتى ضفة القناة ، فتغدو بعض من معاقلنا الاقتصادية ذات القيمة الاستراتيجية وعدة من مدن مكتظة بالسكان ، داخل النطاق المؤثر لمدفعيته ، نهبا لمـا قد ينتابه من نازق نزوات .

أما عن القناة نفسها فقد أفلتت من سيطرتنا ، لا نملك حتى القـدرة على تطهير مجراها حين نزمع ، منسدة فى وجه التجارة الدولية ، انحبس عنا عائدها من عملات صعبة .. والى متى ؟ فلسنا ندرى ، انمـا رهن باعادة عديد من أوضاع الى نصاب ــ وهل تعود .. ؟ اذا ما رسخ بمـر الزمن اعتماد حركة النفط على الناقلات الضخمة !

ومادام لم يحن وقت الالتجاء الى « الحل العسكرى » فالامور معلقة بخيوط تمسك الولايات المتحدة بأطرافها ، بفضل من هيمنة متزايدة ــ داخل أروقة الامم المتحدة وخارجها ــ أطفحها بها الموقف اذ تفاقم .

نعم ، فقد كانت الولايات المتحدة الامريكية ــ وبالتالى ربيبتها اسرائيل ــ هى المستفيدة الاولى من انسداد القناة ، وهبت من حيث لا تدرى أداة ضغط بعيدة الاثر ، اقتصاديا وسياسيا ، بل وعسكريا بالاضافة ، « فوق البيعة » كما قد يقول العـامة .

« الديجولية » كانت وما تزال التحدى الاكبر للنفوذ الامريكى المتغلغل الى ادق حنايا اقتصاديات أوربا الغربية ، موقف فرنسا الصلب داخـل السوق الاوربية المشتركة وخارجها هو الذى أشاع نسمة من تحرر ، بدا وكأنما قـد بدأت تداعب عقـــول بعض من كبار رجالات الاعمـــــال فى أوربا ــ بعد فترة من ردع اذ صدمهم مصرع ، أم هل اقول « مقتل » انريكو ماتيى ــ وان نسيم الحرية ، وان رق هفوه ابتداء ، لمسكر ابدا ،

حرى بأن يثير آخر الامر النخوة الوطنية ، أم انها نخوة القوميات الاوربية ، وقد توثقت بينها الترابطات الاقتصادية .

فاذا بالقناة ينسد مجراها ، فتضيع تلك الدعامة حرية كانت أن تعين من كان قد ازمع فيتصدى لربقة السيطرة الاحتكارية الامريكية أو أن يتملص من خناق استثماراتها المتغلغلة .

ونظرة منا الى ايطاليا .. دولة البحر المتوسط التى ربطنا بها أوثق الاواصر منذ القدم وعلى مر الدهور ، هى نفس الدولة التى اختلجت أوساطها الصناعية بنفثات من روح « انريكو ماتيى » المتوثبة — فاليه يعود الفضل الاكبر فى قلقلة قبضة الاحتكارات الامريكية على مصادر النفط العربى ، فتنتزع ابتداء دول المنطقة لنفسها نسبا أعلى من فائض الارباح — نظرة منا الى ايطاليا .. فهى الى جانب ذلك كله اكثر الدول الغربية تأثرا بالمروربقناةالسويس ، فنراها — ولا عجب فهاك السبب ! — الدولة الوحيدة من دول المتوسط التى انحازت جهارا نهارا الى اسرائيل وان جداول الاقتراع على قرارات الامم المتحدة فى هـذا الصدد لشاهد على ما أقول !

كلا ! بل ألهبت فيها المشاعر ، وكأنها مبتعثة بعد طول احتجاز .. انفعالات هستيرية ، تعود بهم القهقرى عبر الزمان ، فيؤدون التحية لقادة اسرائيل ، افتخارا بهم ، وكأنهم أبطال العصر « الموسولينى » المجيد !

وأين اذن أصدقاؤنا الذين نعرف من اقطاب الحزب الحاكم ؟ أين كلمة الصدق التى كان عليهم أن يدفعوا بها ، ليس دفاعا عن حقنا ، وانما انصافا عن رأى آمنوا أن فيه مصلحة بلادهم آخر الامر ، ابراء للذمة ضمير وايفاء لفرض امانة منصب أو مكانة ؟ كم من مرة خلال جلسات صاخبة للبرلمان الايطالى سمعنا عن عضو يسارى قام يندد بالعدوان الاسرائيلى ، فلا يحظى من هؤلاء النفر الا بايماءة ينسرق بها الرأس ، يود صاحبه لو أن غاص به بين كتفيه ، فكأنها اختلاجة لا ارادية وليس ابداء لرأى عليه احتمال وزره .

ولكن أكثر الدول تأثرا باستمرار انسداد القناة هى قطعا دول الكتلة الشرقية الصديقة ، المطلة بموانيها على حوض المتوسط وامتداداته المائية عبر مضايق البوسفور ، اذ تقطعت اسباب اتصالها المباشر بدول آسيا وشرق أفريقيا ، فتصاب حركتها التجارية معها باضرار فادحة ، بل ادهى من ذلك اذ تتعطل امدادات الاتحاد السوفيتى بالغة الحيوية الى جمهورية فيتنام الديمقراطية ، وتفرض عليها أعباء النقل البحرى الطويل من موانىء البحر الاسود عبر المضايق ، عبر جبل طارق ، وأخيرا حول رأس الرجاء الصالح صوب جنوب شرقى آسيا ، أو النقل برا ، باهظ التكاليف ، عبر القارة الآسيوية جميعا الى فلاديفوستك وغيرها منموانى المحيط الهادى .

فان تتوعر سبل امداد فيتنام بالمؤن والسلاح ، وان تثقل دول الكتلة الشرقية فى علاقاتها التجارية مع عديد من دول العالم الثالث ، وأن تلجم

اتجاهات التحرر الاقتصادى لدول أوربا الغربية .. أى أسلاب تلك أفناء بها انسداد القناة على الولايات المتحدة ، وأكاد أن أقول فى غفلة من تطلع أو من تمن حتى .. اتحفها بها قرار أخرق بأن ننسحب بقواتنا من سيناء ..

ليس عجيبا اذن ما نراه من موقف أمريكا المنحاز انحيازا كليا لاسرائيل ، انما العجب لو كانت أحجمت عن التذرع بمطل وتسويف ، استعصارا لما بدره علينا هذا الموقف من فيض غنم ، أتاها دون ما غرم !

قرار انسحاب .. بل استصراخات يائسة وجهت الى الوحدات اينما كانت وكيفما اتفق ، دون ما تقدير لمستلزمات الانسحاب من ضرورة احكام سيطرة التوجيه مركزيا من القيادة التى فى الميدان ! بل جهالة مطلقة ، وكأنما القيادة العامة لم تقع لها عين على خريطة شبه جزيرة سيناء ، فتبرز لها من خلال تضاريسها الفذة أهميتها الاستراتيجية البالغة .

دع عنك جميع تلك الاخطاء التى تمثلت فى الدفع بخيرة قواتنا الى مواقع أمامية — وكأنما متحفزة للانقضاض — فى حين اتجهت النية السياسية الى التريث فنمتص غلوات الضربة الاولى ، استعدادا لتوجيه ضربتنا المضادة ..

دع عنك تلك اللامبالاة ، فلم تدرب قواتنا فتتمرس بأساليب حرب الحركة ، وخاصة أثناء الليل ..

دع عنك أن أوامر الانسحاب صدرت بينا جلة قواتنا — ٨٠٪ أو أكثر — ماتزال سليمة ، لم تلتحم بعد بالعدو ، وقادرة لو أن لم تنتزع من قيادتنا الميدانية سيطرتها المركزية ، أن توجه فتنقض على المدرعات الاسرائيلية التى اخترقت بعض مواقع من خطوط الجبهة فتمحقها وهى مرهقة بعد طول قتال ..

دع عنك حتى هذا الخطأ القاتل اذ تكتمت القيادة العامة عن القيادة الميدانية السبب الذى دفعها الى تعجل سحب القوات .. تحول سلاحنا الجوى الى حطام فى أقل من ثلاث ساعات ، وكأنما هو سر الاسرار ، فى حين انها حقيقة مروعة تصكهم فى كل لحظة آثارها ،، وابل من متفجرات وعاصف من حميم مصهور ، بينا لو ووجهوا بأصل العلة ابتداء ، لسارعوا فيفرضوا على الانسحاب أسلوبا من انتشار ، ولا يضيع ما ضاع من أرواح وعتاد ، ولا تضطرب النفوس فيتزعزع الايمان اذ يدهمون من حيث لا يعلمون ..

ذع عنك ذلك جميعا ، انما الكارثة التي أودت بجلة مدرعاتنا وبآلاف من صفوة شبابنا المجند ؟ هى تلك اللهوجة التى أحالت جيشا نظاميا الى اشتات ليس لها من هم الا الانطلاق — النجاء ! النجاء ! صوب القناة !

ليس جميعا ، فهناك عدد من وحدات سيطر عليها قادتها فتماسكت وصمدت ، وقاتلت قتال الأبطال .

ولكن قوام الجيش ليس فى صمود بضع وحدات ، هنا أو هناك ، وانما فى تماسكها جميعا فتتساند ... كل لزميلاتها ركيزة ودعامة .

الكارثة كانت فى تلك اللهوجة : ترتب عنها اخلاء الممرات التى هى المفاتيح الجغرافية لشبه جزيرة سيناء ... الكارثة فى أن لم ينتبه صاحب قرار الانسحاب فيسبقه بأوامر صارمة للوحدات المرابطة من حول تلك الممرات الحيوية ، ليس بعدم اخلائها فحسب ، وانما بتعزيزها وتحصينها، وخاصة ضد الهجمات الجوية وقد أمسك العدو بزمام الاجواء .

لو أن فطنت القيادة فى القاهرة للامر ، لتحطمت موجة الهجوم الاسرائيلى عند تلك الممرات فتنكص عنها منكثة الصفوف ... كلا ! بل لاكتفت القيادة الاسرائيلية بالمناوشة عند مشارفها ، دون أن تتجاسر فتحاول اقتحامها .. ربما أن اتجهت الى قذفها من الجو قذفا عنيفا بعض الوقت . ولكن الهجمات الجوية وان كانت ذريعة الاثر اذا ماصبت قذائفها على قوات متحركة فى أرض فضاء ، الا أنها تفقد القدر الاكبر من فعاليتها أمام المواقع موطدة الاركان ، والتى أعدت بحرص واحكام .

ورغم هذا الخطأ الفادح ، ورغم أن جيشنا بات مكشوف الظهر ، عرضة لأن يعتور من خلف ، فكم من قادة وحداتنا فى الميدان تذمروا ، اذ استصرخوا الى انسحاب ، فينبهون قيادة القاهرة الى أن المعلومات لديهم أكيدة بأن الجزء الاكبر من المدرعات الاسرائيلية فى تقدمها المستمر الخاطف قد استنفدت مخزونها من وقود وذخيرة ، وان « طواقمها » يكادون أن يتهاووا من فرط أعياء ، ولكن الآذان كانت قد صمت ، أم انها كانت تستفز وكأنما الادلاء بمثل هذه المعلومات بمثابة تشكك فى صحة تقدير قرار الانسحاب فبادرة من تحد ، أو اهدار لوقت وجب تكريسه لانقاذ تلك « الخطة » التى تفتقت عنها ألمعية صاحبها ، فيعود بعقارب الساعة الى الوراء ، الى تلك الأوضاع التى انتزعت النصر من براثن الهزيمة عام ١٩٥٦ .

وكانت الكارثة ! اذ تخلى تلك الممرات الحيوية من القوات المرابطة بها ، فهى القوات الأقرب الى منطقة القناة ، حرية بأن يتم سحبها قبل غيرها — يا للأذهان المتفتقة ! — وكأنما الانسحاب هو مجرد عملية « الحق وديلك فى اسنانك » .

والقيادة الاسرائيلية غير غافلة عما تم ؛ فهى دائمة التصنت على اتصالاتنا اللاسلكية ، مسيطرة على الأجواء تقرأ مايجرى على الارض ، وكأنما فى كتاب مفتوح ، مدركة تمام الادراك للأهمية الاستراتيجية القصوى لتلك الممرات ، فتنفذ اليها قوات « مظلية » تسقطها من الجو ، وتتخير من قواتها البرية ماتحدو به حثيثا صوب تلك الممرات ، فتسارع اليها لا تلوى على شيء ، مواصلة آناء الليل بأطراف النهار ؛ متجنبة الالتحام مع أى من قواتنا المتناثرة هنا أو هناك ، بل تجاوزها متفادية مواقعها ، تراوغها فتفوتها ، فى وعى تام بأن انتزاع الدقيقة بل الثانية معناه احكام الحصار من حولها جميعا ، وقد سمعنا كيف انها فى تعجلها لم تتأن حتى اذا مانفد عن بعضها الوقود حتى يوأتيها المدد ، وانما تشد بعضها بعضا بالجنازير؛ وتمضى الى أمام لاتربع على شيء ، تسابق الزمن وتود لو أن تسبقه ، وكأنما ابتعاثا لجوهر تلك الصورة الموغلة فى القدم ، واتتهم بها أسفار الاولين ، اذ تدك جيوش الملوك الاموريين الخمسة المتحالفين بوابل من

سجيل، ثم يسارع الرب فيوقف حركة الزمان، فتكتمل ليشوع بن نون فرصة القضاء على أعداء بنى اسرائيل .

هذا وقواتنا التى تم حشدها على مدى أسابيع طوال ، ماتزال متناثرة بقضها وقضيضها على صفحة شبه جزيرة سينــــاء ، فاذا ماتكاثفت صفوفها ، متزاحمة ، متدافعة المناكب ، بغية عبور هذه الممرات بخوانقها الرهيبة ، قليلة العدد ، حصدت حصدا وكأنها الهشيم ! ممرات صهرت عند مداخلها معدات جيش بنيناه بما اقتطعنــاه من قوت الشعب طيلة سنوات عشر ، ممــرات فاضت على جنبــاتها أرواح الآلاف من زهرة شبابنا ، تعلقت مقاديرهم ومصائر الوطن بسمادير ذهن ملتاث .

تصرفات هى فى صميمها تراكب متهايل من اخطاء فادحة فوق أخطاء . فتنهتك عن الوطن أسباب الامن والســـلامة ، مستذلا متفسخ الاوصــال مستباح الذمار ، نهبا لمن تسول له نفسه اغتصاب حماه ...

تصرفات فصلت من رواهنها فى كلمتى هــــذه ، ليس اثارة « لمواجع النفس » ، كما قد تقول فى بعض اغانينا العاطفية ، وانما اهابة الى حذر فلا نتردى مرة أخرى الى مهاو جديدة .

تصرفات خرقاء — وان الخرق لشؤم كما جاء فى الحديث الشريف — دفع بها تعلق الأذهان بمسلمات أضفيت عليها هالة من قدسية ، وكأنها حقــائق مطلقة ، أزلية أبدية ، بنيـــان شــامخ من واجهــات تفكير بينما العقول خواء ! .

فان البشر ، اذا ماووجهوا بالمعضلات ؛ انما يتصدون لمعالجتها فى ضوء من دراسات مستفيضة لأبعاد الموقف ، فيستخلصون منه الأساسيات ، تلك الحقائق الاولية التى هى الركائز الوطيدة للرأى السديد .

مكمن الخطورة فى أن يركن المرء الى صورة ربما أن تحددت لها معالم ، تصويرا صادقا لأبعاد موقف معين ، اكتنفته ظروف معينة ، حيث ترابطت تلك الحقائق الاوليــة فى اطار من قوى محسوبة المدى ، محددة الاتجاه ، الى معادلة شبه «فيثاغورية» ، فيتعلق بها من قصرت مداركه أو تشعثت همته الى عديد من نوازع ، وكأنما هى مسلمة مطلقة ، صالحة لكل عصر وأوان ، مبرأة من كل نقد ، تعفيه من عنت اعمال الفكر واعادة التقييم .

هناك حقائق أولية ، أى نعم ، لاغنى عن الارتكاز عليها فى أى من عمليات التفكير أو التخطيط ؛ ولكنها ليست أبدا جامدة ثابتــة ، وخاصة فى تلك الميادين التى تحكمها تصرفات البشر ، وحتى ان ظلت على ماهى عليه فترة من زمان فان العلائق التى تربط بينها ، تلك القوى الدينامية التى تشكل أبعاد المواقف واحدا تلو آخر ، انما فى تبدل وتغير مستمرين ، من حيث مداها واتجــاهاتها على الاقل ؛ منخرطة ابدا الى أوضاع متجددة ، بل أحيانا متباينة ، فمن أراد أن ينفذ ببصيرة الى لبابها ، عليه أن ينفض عن ذهنه احتمالات الانحباس داخل قوالب جامدة من تفكير ، فيكد ويجهد فى اعادة تقليب الامور والغوص الى رواهنها المتغيرة وظروفها المتقلبة وتياراتها المتراوحة ومناخاتها المتناوحة .

كلا ! ليس هدفى اثارة مكامن من مواجع .. وانما أن نهيب بكل ذى رأى من مواطنين ألا يترددوا مرة اخرى الى اعتناق تلك المعادلات التى يفتن فى دبجها من يدعون العلم من رجالات الاعلام ، يتصاعدون بفصاحة متملقين الأهواء والآمال المطلقة ، فننساق من خلفها وكأنما هى المسلمات المنزلة — استغفرك أى ربى ! — لا يأتيها باطل من اى جانب كان !

والا فلن نلومن الا انفسنا اذ تدق مرة أخرى ساعة المواجهة مع العدو الاسرائيلى ، انها مواجهة حتمية ، آتية لاريب فيها ، لامهرب لنا منها اذا أردنا لأمتنا العيش والازدهار .

كلام أسوقه اذ الحظ ، والعين آسية ، شعارات جديدة اذ تحاك ، أو قديمة تعاد صياغتها ، فيسارع القوم من حولها متزاحمين ، مشرئبة انظارهم ، نذيرا بأن سوف ترقى الى مرتبة قدسية من مسلمات ، هى أصنامنا الجديدة ، نخر أمامها ساجدين ، مستسلمة لسحرها مداركنا ، لايتحرك لنا لسان من فرط رهبة الا بالتسبيح ، ولا تطرف لنا عين من فرط تخشع وكأنما قد حط عليها حجاب حاجب فلا تتجاسر الى استطلاع ماقد يكون فوقها من آفاق ، ونغوص حيث تلبث بنا الفكر الى اغوار الجمود ، أو ربما حاولنا أن ننطلق ... ولكن الرؤية اذا ماأغبشت لحرية بأن تحيد بأقدامنا عن الجادة الى متاهات الضياع ، أو تتردى بنا الى مهالك من زلل ملج .

لست أدعى لنفسى القدرة على توضيح معالم الطريق ، اذ ليس هناك بعد طريق ، ولا يمكن لشخص أن يتكهن أين يكون ، انما الذى نعلم هو وضوح الوجهة التى اليها نصبو ، أما الطريق فرهن بأن يشق ، خطوة تلو أخرى ، اذا ما تضافرت جهود المواطنين جميعا ، فكرا وعملا ، متذرعين بارادة لاتلين وعزم وتصميم ، الخطوة الواحدة مهما قصرت هى فى حد ذاتها ملحمة من صراع ، تذليلا للصعاب واقتحاما لدغل من عوائق ، ملحمة تمازج وتضافر بين عمل جاد متصل وفكر متفتح يرفض ابدا الانحباس داخل قيود من مسلمات .

كلا ، ليس هناك بعد طريق ... انما صورة من هدف علينا أن نسعى اليه ، ولا يعنينا الا تحقيقه ، فلا قيمة لأين يكون الطريق ، وانما فى كيف أن تشق المسالك ، مهما تشعبت بنا ، نحو الهدف المنشود ، المسألة ليست سباقا بين خصمين قطعا لمسافة معينة ، وانما اشبه ماتكون بمباراة فى الملاكمة ، حيث الحركة رهن بتحركات الخصم أو استباق لها ، الا انها حلبة تمتد فتشمل ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والدعاية على النطاق العالمى ، والنصر لذلك الذى لايهن ولايفقد فى أى لحظة توازنه ، لذلك الذى لاتزل قدمه بينا ابدا متحفز فيختلس الفرص ، لذلك الذى يحدوه أبدا العزم والتصميم .

كلا ، ليس هناك بعد طريق ... وانما هو اسلوب حركة ، قادر وحده ، بفضل من اصرار الامة وتضافر ابنائها جميعا ، على تذليل الصعاب والتصدى للمفاجآت ، فننحت لانفسنا المسار ، شبرا شبرا ، الى الهدف المنشود وحذار من أن ننزلق الى ارض رخوة حيث لامرتكز ، أو ان نصيبها

بشلل اذ نسلمها الى أحد تلك الفخاخ التى ننصبها لانفسنا فى صورة من مسلمات .

أقول ما أقول اذ أراها تفغر فاها من جديد عن يمين وشمال ، ومن قدام ومن خلف ، فيتحتم على أن ارفع صوتى بالتحذير ...

سمعت من يقول أن الوقت فى صفنا وليس فى صف اسرائيل ، واخشى ما أخشاه أن يتحول هذا القول الى شعار ثم الى مسلمة نستنيم لها . . فهل هناك اقوى من الزمان حليفا ؟

الوقت ! ولكن ماهو الوقت ؟ أليس حركة زمان .. شمس تشرق ثم تعود فتغرب ... أيام تمر واسابيع تمضى فتنسحب من خلفها الشهور والأعوام ؟ كلا أى أبناء وطنى ! ليس هكذا يكون حساب الوقت فى هذا العصر الذى نعيش ، انما تحول مفهومه الى كميات انتاج ، الى عمل يؤدى بمقاييس من دقائق وثوان ، بل وكسور مرهفة من ثوان فى بعض الاحيان

أم هل ترانا قد نسينا ـ مصيبة المصائب وايم الله ! لو أن نكون قد نسينا ـ كيف دهمتنا اسرائيل بضربتها الجوية القاصمة ؟ طائراتهامتناثرة فى عشرات من قواعد ، ولكنها تصعد الى الجو فى تسلسل زمنى دقيق ، تتلاقى أو يتتالى مرورها فوق معالم محددة ، ثم تتشعب فتنقض على قواعدنا ، على الرغم من تباين المسافات اليها ، فتنزل بها جميعا ضربتها الأولى فى توافق زمنى عجيب ، كل « طلعة » خاضعة لبرنامج توقيتى صارم ، كذا دقيقة وصولا الى الهدف ، دقائق اربع أو زهاء ذلك ، هى فسحتها للقصف ، ثم تدور آيبة والا تقطعت أنفاسها لنفاد الوقود .

وفترة محسوبة من دقائق ـ هى سبع ونصف ـ لايتعدونها الا فى حالات من ضرورة قصوى ، هى التى يسمح لها بها على أرض القاعدة ، فيتم التفتيش عليها ، ويعاد تزويدها بالقنابل وتعمير مدافعها بالذخيرة وملء خزاناتها بالوقود ، ويستبدل بقائدها آخر أو أن يسارع اليه شخص مسئول فيتلقى منه تقريرا بما أنجز ، ثم اذا بها منطلقة الى الاجواء مرة اخرى .

سبع ونصف من دقائق ! رقم مذهل ، لاينبسط فيتسع لشتى تلك المجهودات المتزاحمة ، الا أن تعتسر له ، بطول تدريب وتمرين ، الطاقات البشرية ، فتتسق انجازاتها ، متوافقةمتكاملة وكأنما توجهها آلة الكترونية حاسبة ، ونقف مأخوذين اذ لا تكاد تخلو أجواء مصر من طائرات العدو ، غادية رائحة ، عشرات المئات من طير أبابيل ، ولا يسعنا الا أن نظن ان موجة الهجوم الاسرائيلى قد دعمت بأسراب أجنبية لاحصر لها ولا عد ، والا فكيف بها قد تضاعفت مثنى وثلاث ، وكأنها فصائل فذة من طائرات تتوالد كلما نفخ فيها الهواء .

نعم ، هكذا تصورنا فى ضوء من حساب ، ولم تكن ندرى أن مقاييس الوقت عندهم غير التى نعرف ! هل أخبركم بما تستلزمه خدمتنا الارضية من ساعات ـ نعم فان الساعات ، فضفاضة رحراحة ، هى مكاييلنا الزمنية ـ فيعاد تجهيز طائراتنا للتحليق مرة أخرى ؟

هلا أن استحلفكم باعفـــائى .. والا صدمتم فى أعز ما نملك ، فى تلك الخاصية التى لازمت المصرى منذ أن تفرد باقامة ذلك الصرح السامق من حضارة ، انبهر العالم أمام منجزاتها الرائعة ، وما انفك تأخذه الروعة كلما كشف عن جديد من خباياها كان قد ظل مطمورا ، تلك الخاصية هى كل ما تبقى لنا فتصلب من عودنا ، تلك العنجهية ، نظرة الاستعلاء تلك التى يلقى بها المصرى على الغير ــ تأصلت بينما نحن الى تفكك ، فأصبح الغير ليس الاجنبى وحسب ، بل والمواطنين الذين خارج الدائرة التى يتقلب فيها الفرد منا ويعيش ــ فنسخر منهم ونستخف بل ونزرى بقيمـــة ما يكون قد حققوا مهما علا شأنه ، وخاصة اذا قصرت عنه قدراتنا ، وكأن لاجـــدوى له أو ليس اليــه من حوجـــة ــ « قصر ديل ياأزعر ! » ــ ثم « نطرقع » بسيـــاط من لسان حديد ، متهكمين مستهزئين ، ذودا عما تغفلنا به من كبر وعجب ، فقد سوينا على أفضل مايكون ، ومن طينة غير تلك التى خلق منها البشر أجمعين !

كلا ، أى ابناء وطنى ! ليس الوقت حليفنا الا لمن عرف كيف أن يمسك به فيعتصره ، ليس الوقت فى صفنا أو فى صف اسرائيل . وانما هو أداة لمن عرف كيف أن يذلله بالعمل الجاد مطية لأهدافه ومآربه .

وسمعت أيضا من يقول بأن العرب قد يخسرون المعركة ، بل معركة تلو أخرى ، ولكن اسرائيل لايسعها أن تخسر معركة واحدة والا انتهت !

قول ربما سمعنا به فى صور أخرى متعددة ، ولكنها تكاد أن تنبثق من نفس المفهوم ، فهناك أستاذ جامعى فرنسى بحاثة ، يفضى الى بعض أصدقائه المصريين بأن كفة العرب راجحة حتما فى ضوء من منطق تاريخ ، « فهلا أن أفعمتم قلبى بايمان فى ضوء من منطق سياسة ! »

ثم صورة أخرى ، ربما هى أكثر شيوعا ، وأحبها الى قلوبنا ، ثبت الينا بالارقام ، وما أخطر الاعتمـــاد على لغـــة الارقام ، اذا ماأعوزتهـــا صرامة التحـــديد ــ فقد قيل أن الجدول الواحـــد من أرقام احصائيـــة ربما أن تفاوتت ، بل تناقضت النتائج المستخلصة منه ، باختلاف أمزجة أو تمنيات من انكب على دراسته ــ سمعت من يقول أن لاخوف من النتيجة النهائية لمعركة المصير ، فانما اسرائيل آخر الامر ، ومهما بلغت من قوة ، جزيرة معزولة وسط ذاك الخضم من مائة المليون !

ما هكذا يكون الحســـاب فى هـــذا العصر الذى نعيش ــ عصر الآليات والالكترونيات ــ حيث لا قيمة للسلاح الحديث الا أن يعهد به الى أذهان متفتحة ، نفثت فيها من روحها منجزات علوم العصر .

تقولون اننـــا أمة من ثلاثين مليونا ! والله أننا لانتعدى العشرة الملايين اذا فرزنا الجموع فنفصل بين أميين وغير أميين ... وحتى ان قلنا بذلك فاننا نزرى بمكاييل العصر التكنولوجى ، حيث لاوزن لاولئك الذين توقفوا عند عتبة « فك الخط » .

ماهو تعداد مصر اذن بمقاييس العصر ؟ كم عـــدد الذين أتموا تعليمهم الثانوى أو الفنى .. وما هو رصيدنا من خريجى الجامعات ؟ أصحاب

« المؤهلات » كما يقولون فى مكاتب التجنيد ، وقد أفقنا أخيرا الى أنه لاقوام لجيش حديث الا ان تعبأ كفاءاتهم .

أمامنا فى اسرائيل ـ « سلاحها السرى » كما يتباهى بذلك بعض معلقيها السياسيين ـ ذروة فى مجالات الدرس وتحصيل العلم والتثقيف، حصيلة الفرد من مقروء الكتب تكاد الا ان تدانى .. أما هنا !

بل ما من يهودى فى أى من بقاع الارض ـ والغالبية العظمى من شبابهم قد أمضى فترة من تدريب عسكرى على أرض اسرائيل ، فهو من جنودها كلما ازمعت على حرب ـ الا وأصاب قسطا وافرا من تعليم .

اما هنا .. ولنقصر نظرتنا ، على سبيل المثال ، على شريحة واحدة ، ولكنها خطيرة كل الخطر ، من الاحتياجات التى يلزمنا بها العصر التكنولوجى .. فكم عدد الوارد السنوى من الذكور المهيئين ذهنيا وجسمانيا ... ثم نفسانيا ، فيجتازوا صنوف التدريب القاسى التى تؤهلهم آخر الامر لقيادة طائراتنا النفاثة ؟

واقول نفسانيا .. فالملاحظ مع الاسف الشديد عزوف كثير من شبابنا ، احيانا تحت ضغوط عائلية عنيفة ، عن التقدم للانخراط فى سلك القوات الجوية !

بل ان كلمة « نفسانيا » تنسحب الى ماهوابعد .. الى تلك «الروحة» منافية كل المنافاة للطبيعة المتأصلة فى كل مصرى ـ فهى نغمة نشاز ، والنشاز حرى بأن يثير الريبة ـ اذ تتجه أعداد وفيرة من مثقفيناواصحاب الخبرة الفنية الى الهجرة خارج البلاد .

بل أخطر من هذا ، مناخ فكرى قد حط ، ببذور من نبت خبيث فيستشرى .. فلا حديث للطلبة فى جامعاتنا الا عن فرص الهجرة الى هذا البلد أو ذاك اذا ما أتموا دراساتهم .

فهلا ان استقصينا بالدراسة العلمية المتأنية الاسباب الدفينة لتلك الظاهرة ، تستنزف طاقاتنا العقلية بينما نحن فى اشد الحاجة اليها ! هل نريد لامتنا ان تختل موازينها فى هذا العصر التكنولوجى الذى نعيش ، فتتكدس فيها الاجساد بينما تفر ناجية بنفسها العقول !

كم من مصريين تفردوا بمكانة علمية فى ادق تخصصات العصر ، ولكنهم عن العودة الى الوطن عازفون ، بعضهم قد قهر الى هجرة اذ حاولوا افادة الوطن بخبراتهم ، فيلقى بهم الى أركان مظلمة من وظائف لاتمت الى تخصصاتهم بأوهى سبب ، تغوص بهم الى غياهب من اغفال تحت وطأة خانقة من رتابة « روتين » ، حيث الفرد مهما ارتقت كفاءته ، مثله مثل غيره ، سلعة فرضت عليها توقيفا تسعيرة موحدة .

هذا عن مصر .. فهل انتقل بكم الى الظروف السائدة فى بقية البلاد التى نقول عنها أنها تزخر بالمائة مليون ؟

وحذار من شخص يقرأ كلامى فيرمينى بمظنة السعى الى تثبيط الهمم .. حذار ! فانه يريد لنا ان ندفن رؤوسنا فى الرمال ، فلا نواجه حقائق

الموقف .. ولا حركة الى امام الا أن نعلم اين نقائصنا فنذللها ، وأين مكامن قوتنا فنستغلها .

وكفانا ما أصاب هممنا من تخدير استنمنا من قبل للمسلمات ! حقن «مورفينية» ، فتغشى أبصارنا بسمادير من أوهام وتمنيات ، فاذا صدمنا الى افاقه .. وان عدوان الخامس من يونيو ليس ببعيد !

اننا نملك ثروة ضخمة من طاقات بشرية خارقة .. شيدت الاهرامات حجرا فوق حجر .. شقت القنـــاة اذ حفرت الارض بضربة معول أثر اخرى .. رفعت صرح السد العالى شامخا بالجهد المضنى والعرق المعتصر من أجســاد فولاذية ، فهلا أن أعددناهم فيسيطروا بأذهان مستنيرة على تكنولوجيات العصر ، من آلات انتاج أو أسلحة دفاع عن حر المقومات !

أو بعض أعـــداد فى حدود مايتيسر لنا من وقت ، بل فى حدود من اعتســار للوقت ، والله ان فعلنا ، فلا خوف على وطن آمن أبناؤه بحقه فى الحياة !

ولكن علينا أن نعي جيدا الا سبيل الى اعداد جاد الا تثقيفا وتعليما ، ولا ثقافة ولا علم ـ أينما كانت مواقع العمل ـ الا بأن يمتلك الفرد منا ، كل فى حدود طاقاته وواجباته ، ناصية الكلمة المكتوبة .

وعلى سبيل المثال ، وتأكيـدا لما أقول ، فانى اسألكم اذا لم تكن قد وقعت لكم عين على تلك الارشادات والتوجيهات ، تنشرها وزارة الزراعة ، بين الحين والحين ، فى الصحف السيارة ؟ ارشادات لها اهميتها والاماعنى بنشرها ، فمن ذا الذى يقرؤها ؟ ومن ذا الذى اصــاب قسطا من ثقافة زراعية متطورة فينتزع نفسه من قوالب الاساليب العتيقة التى عليها درج؟ أم أن سوف تقولون أنهـا تعليمات موجهـة الى المرشـدين الزراعيين .. فوالله لو ان تحول مثقفونا جميعا الى مرشدين زراعيين لما اغنوا فتيلا ما دام لم يقتنع الفلاح الذى فى موقع العمل .

ثم تلك المسلمة الاخرى بأن اسرائيل مجتمع اصطناعى ، خلط فيه بين حابل ونابل ، أشتات متنافرة تلاصقت الى هيئة من جسد ، زج به الى المنطقة ، مآله الى تفكك ثم ان يلفظ به الى خارج ، فهو عليها دخيل .

موضـــوع تناوله من شتى نواحيه كاتب فذ ، هو من كبار مفكرينا ، يفيض قلمه بعصارة هى حصيلة وافرة من علم رصين ، الا انه يراجع نفسه فيحذرنا فى مقال له خطر من الانســياق خلف التمنيات (١) ، فنخترع لانفسنا مسلمة جديدة ، نسلم لها القياد متواكلين ، بينما نحن الى راحة من بال سادرين .

قال : « فاذا كنا تقليديا نعتبر ان الامة هى التى تصنع الدولة .. فهناك نظرية قوية محدثة ، تعتقـد ان الدولة هى التى تصنع الامة على المدى الطويل ، وكل امة لم تبـدأ أمة حقيقية بالضرورة ، ولكنها فى اطار تنظيم

---

(١) جمال حمدان ، فى مقال له بمجلة الكاتب ابريل ١٩٦٨ .

سياسى مشترك ، مضروب فى عامل الزمن الكافى ، تتحول الى أمة بمعناها السليم ... فان ٥٠ سنة أخرى مثلا قد تحيل كيانا مصطنعا ملفقا مثل اسرائيل الى كيان طبيعى بدرجة أو أخرى ، يضرب بجذوره فى الارض ماديا وبشريا ، بحيث تصبح طائفية الصهيونية الخلاسية فى النهاية قومية أو شبه قومية » ..

هل أمضى فأتناول المزيد من تلك الاخطار التى تتهددنا .. والتى هى مع الاسف الشديد من صنع أيدينا ؛ تخريجات ربما كان همها اساسا اشاعة الثقة فى النفوس ـ أى نعم ! فهذا جد ضرورى استنهاضا للهمم وانتشالا لها من مهاوى اليأس ، ولكن مكمن الخطورة حين تعبأ النفوس بمزيد من أمل مطلق ، يفيء علينا بظل ظليل ، فتتراخى الجهود ، ونستنيم الى وعد من الله حق ، متناسين قوله تعالى ، وقوله الصدق : « وأن ليس للانسان الا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى » .

هل أمضى .. أم اننى فصلت من الامثلة مافيه الكفاية ؟ كلا ، بل هناك نقطة أخيرة لا أطيق عنها صبرا ، تلك النبرة الجديدة التى تلقفتها أجهزتنا الاعلامية مؤخرا فتضرب عليها باصرار ، اذ انفتقت امامها فرجة ربما كانت منفذها أخيرا الى تلك الحلبة ، طالما قصرت عنها امكانياتنا وقدراتنا ، أو تعثرنا اذ نقتحم اليها الطريق بين الحين والحين بوسائل فجة ، كالثور الهائج فى حانوت من خزف ، أو على النقيض من ذلك تماما ، فى غير تحوط كالحمل متهاديا الى مرتع الذئاب ، أما الاسلوب السوى فقلما عرفنا كيف يكون ..

فرجة ننفذ منها اخيرا الى حيث الرأى العام العالمى ، فقد بدأ يتحول تدريجا عن سابق انحيازه لاسرائيل !

نغمة أطربتنا فنكررها متمايلة رؤوسنا وقد أسكرتنا بعض نشوة .

لاشك ان صورة اسرائيل ، كما كانت تنفخ فيها الدعاية الصهيونية والاستعمارية ، قد اهتزت اهتزازا عنيفا بعد أن انهتكت الاستار عن حقيقة امرها وعن غوائل أطماعها التوسعية ، ولكنها لن تعدم الوسائل ، ولن يهدأ لها بال حتى تعتسر الرأى العام العالمى ، فتروضه على الانسياق من خلفها مرة أخرى ، أو أن تحمله على التغاضى عن أفاعيلها .

ونظرة منا ـ غير متأثرة بالتنمى أو بالانفعال ـ الى خريطة النفوذ الصهيونى المتغلغل الى أدق حنايا وسائل الاعلام ، حتى فى بلاد لنا صديقة ، ثم سيطرته بوسائل خبيثة على مجالات الفن والترفيه ، فتشكل من أذواق الجماهير ، ومن ثم على ميولهم ، بتراكمات من ايحاء وتزفيق أو تعريض ساخر .. فلا ترى من تلك الصحف ، قليلة العدد ، التى تصدت مثلا لوحشية الاجراءات الاسرائيلية فى الارض المحتلة ، الا حذرا وحيطة ، فتسارع الى موازنة ماقد أبدت من استنكار بأن تنشر مايزرى بنا .

كم من مقالات أو تعليقات ـ وجميعها عابرة لم تثن أو تتابع ـ حاولت أن تبرز مثلا أبعاد الصلف الاسرائيلى اذ تتحدى دول العالم أجمع ، حين

صدرت القرارات متتالية حول موضوع احتلال القدس ؟ أو مدى استهانة حكامها بالادانات التى استنزلت عليها عقب اعتداءاتها المتكررةعلى الاردن؟

لو أردنا أن نتلمس حجم تلك السيطرة الصهيونية ، فلنوازن بين مانراه فى هـذا الصدد ، وبين ردود الفعل التى يمكننا أن نتخيل لو أن الدول العربية هى التى اقترفت ماقد اقترفت اسرائيل !

أما الجانب الخبيث فهو الايحاءات التى تنطوى عليها وسائل الترفيه فتستحوذ على مدارك السـذج من عامة ، وتسـقيهم دون أن يدروا السم الدعائى الزعاف ، فى ثنـايا من مواقف تبدو بعيدة كل البعد عن النزاع العربى الاسرائيلى .. فى أفلام سينمائيـة باذخة التكاليف ، حورت فيها وقائع التاريخ ، أو دست عليها فى أحكام بالغ ، ولكن خطفا وكأنما جاءت عفوا ، كلمة عابرة أو لفتة طارئة ، ولكنها معبأة بمعان ، طريقها حتما الى الترسب فى الاذهان .. ومثل ذلك فى قصص تدبجه أقلام لها شـهرة أو مكانة ادبية رفيعة .

ثم ذلك التركيز على انجازات فى شتى مجالات العلوم والفنون ، ماكان للبشرية اليها من سبيل، لولا نفر من عباقرة يهود ، اثراء للتراث الانسانى، وذلا دون مطمع فى عرض مغنم .

وقد استلفتنى مرة ذلك الرأى(١) بأن أحدالاسباب الرئيسيةالتى تعتسر الرأى العام العالمى فينحاز الى اسرائيل ، هو أن الصورة المنطبعة فيه عن العرب اسـوأ من تلك التى عن اليهود ، واضيف فأقول ان العقليـة الغربية تحمل أيضا رواسب من عداء قديم للشرق العربى ، ولكنها رواسب تافهة ضئيلة اذا ماقيست بأبعاد ذلك الحقد الذى ظل يعترم القلوب تجاه اليهود منذ أن حملوا وزر صلب المسيح .

فلو أن الامر كذلك ــ ويبـدو أنه رأى انطوى على درجـة من دقة وصدق ــ فان فرصتنا هى فى جلو تلك الصورة من الشوائب التى علقت بها . كسبا للرأى العام العالمى ، وقد أصبح من تلك القوى التى ليس عنها غنى .. فرصتنا هى أن نخرج الى العالم ، الى ندواته العلمية والادبية ، الى مسابقاته الفنية والرياضية ، الى معارضه الصناعية والانتاجية ، الى مؤتمراته الشبابية والعمالية والنسائية ، متخيرين أحسن ماعندنا واقدر من فينا ، وليس كما ترامى الينا مؤخرا ــ وارجو ان يكون الخبر كما ورد فى صحافتنا مجرد اشاعة ــ من أن قد أوفدنا الى مؤتمر علمى متخصص نفرا من موظفين اداريين ، وكأنما أردنا لوفدنا ، ومن ثم لسمعة بلادنا ، أن تكون أحدوثة أو أضحوكة !

---

(١) اعتقد ان كان للاستاذ احمدبهاءالدين فى مقال له بجريدة الصـور الاسبوعية

هــذه فرصتنا ــ اذ يقال أن مناخ الرأى العام العالمى قد أخذ يتحول فنستغل تلك الفرجة .. اما أن نقعى فى فىء من ظل ظليل ، استنامة الى « حتمية » نضفيها على مسار نتخيل أن سوف تسلكه الامور ، فلن نلومن الا انفسنا اذا مابدأت تلك الموجة فى الانحسار ، وانها الى انحسار ــ فالرأى العام حول قلب أينما يكون ــ اذا لم نحسن استغلالها ، بينا الجانب الآخر دائب فى سعى لاينى .

هلا أن احترزنا من التردى مرة أخرى الى مهاوى المسلمات ، هلا أن نفضنا عن انفسنا سلبيات الفترة التى ولت ، فننظر بصادق بصيرة الى ماحولنا ، مفعمة قلوبنا بايمان ، متفتحة اذهاننا ، عاقدين العزم على شق الطريق ، مسالك وشعابا ، الى حيث النصر المؤزر باذن الله !

يقول عز وجل فى كتابه الكريم : « فقــد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » ، وانه القول الصدق ، عبرة لمن أراد أن يعتبر .

إسرائيل والصهيونية
ومعركة المصير

ان يعرف المرء حقيقة عدوه لهو المدخل السليم ـ ولا مدخل سواه ـ فنعد أنفسنا للتصدى له ، تمهيدا للقضاء عليه حين تدق ساعة المواجهة الحاسمة ، والا كنا كمن يطيح بضرباته فى « عمياء » ليل بهيم

ان ساءلت أيا يكون عمن نواجه ، فالاجابة طوع كل لسان : انها اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل ! ولا غرو فاسرائيل هى التجسيد الحى الملموس للخطر الذى يتهددنا فى حاضرنا وفى مصيرنا . . .

ولكن ماهى حقيقة اسرائيل ؟

ان الامر ليهون لو انها مجرد وجود منزرع على صفحة ارض مغتصبة ، قوامه هذا العدد المعلوم ، الخاضع لعمليات الحصر والاحصاء ، من مهاجرين ، حتى ولو أحصنوا بمهارات « تكنية » العصر ، وغذوا بترسانات من سلاح ذريع الفتك ، حديث . . فامكانيات الرقعة الجغرافية ، مهما اتسعت ، مآلها الى تشبع ؛ حتى وان ألقمت باعداد متزايدة من نازحين . بل انها لحرية بأن تغص بالمشاكل المتضاربة المتفاقمة لتلك الهجرات المتزايدة . . .

انها هجرات معنية ، نظرا للظروف المحيطة بها ، بنوعيتها أولا وقبل كل شىء ـ بمستويات المهارات العلمية و«التكنية» والقدرات الجسمانية على تحمل أعباء القتال ـ وليس بتكديس الاعداد كيفما يكون . . ثم بابتداع انواع من علائق بين الاصول النازحة فتتسق الى انسجام . . .

وليس سرا ان اسرائيل تواجه مشاكل لاعديد لها بين طوائفها المختلفة المتخالفة ، منها ماهو عنصرى يثير ضروبا من تفرقة ، ومنها ماهو عقائدى يولد احتكاكات بين المتدينين المتزمتين وبين العلمانيين المتحللين ، ومنها ماهو سلوكى يفجر اصطدامات بين طرائق حياة المجتمعات « السفردية » من جهة وبين « الاشكيناز » من جهة أخرى ، ثم انها جميعا ليست بالمشاكل التى تحدها فواصل قاطعة ، فان الضغوط التى تسعى بتلك الطوائف والمجاميع الى تلاحم فانصهار ، مؤداها فى الوقت الحاضر على الاقل ، الى خلق نوازع متراكبة من تضاربات متداخلة .

مجتمع تنازعه قوى متنابذة فى اتجاهاتها ، متصادقة فى مصالحها ، تنعكس عنه صورة بالغة الدلالة فى تلك الكشوف الاحصائية عن جمهرة الفنيين النازحين عنه ، فى هجرات مضادة ، باعداد متزايدة . . .

مجتمع هو الى تفكك وتناثر الا أن تتحوطه صرامة قوة خارجية عاتية وأن تحقن اشتاته الاجتماعية بين الحين والحين بمايلاحم بينها الى صلابة عود .. قوى اعتدنا ان نحتسويها ، حابلا على نابل ، فى تلك الجملة الفضفاضة : « ومن هم وراء اسرائيل » .

فمن هم هؤلاء الذين « وراء اسرائيل » ؟

قوى الاستعمار فى المقام الاول ، من حيث المعركة الضارية التى نخوض أوارها ، مجابهة وفى صورتها المباشرة ·· الدول الاستعمارية الكبرى التى لم تتوان عن مد هـذا الكيان بالمال والسلاح ، وعن بذل التأييد له دون حدود ... قولا فى المحافل الدولية ، وفعلا بتحريك تيارات عارمة فى حلبة العلاقات الدولية المتصارعة ..

ولكنها كأى قوى خارجيـة بحتة ، لتعجز عن أن تجد نفعا يرجى فى الأداة التى تستخدم اعانة لها على تنفيذ مآربها ، الا أن تكون لهذه الاداة صلابة ذاتية ، تغنى الاستعمار عن التورط السافر ، عبر الحدود المصطلح عليها ــ حماية ــ زعموا ــ للشئون الداخلية للدول الاعضاء فى المجتمع الدولى ... وان كانت لاتتورع ، بطبيعة الحال ، عن أن تفعل اذا ماألحت عليها الاطماع ، متذرعة بأسباب تعتسر ، فتتسق مظهريا على الاقل مع ماتدعى من حرص زائف على حريات الشعوب ، أو دعما لانظمة حكم توابع خوانع تضفى عليها من عندها ملامح زائفة من شرعية أو ديمقراطية ، كأنما العناية الالهية اصطفتها حفيظة عليها .

كأن تدعى مثلا أنها تتجه بجيوشها ، قضا وقضيضا ، الى فيتنام درأ لتوغلات تخريبية ، حماية لنظام حكم ــ ليس فى حقيقته الا مجموعات من عصابات متناحرة على المناصب ، متعاقبة عليها ، ما كان بوسع أى منها أن تطفو الى سلطة لولا أن أسبغ عليها المستعمر ، كلما عن له ، المال والسلاح ..

وليس هـذا حال اسرائيل ... فهى وان كانت كيانا تتنازعه خلافات جذرية ــ سلوكية ... عنصرية ... بل وطقوسية من حيث العقيدة ــ حتى لتكاد أن تمزقه ، الا انه وجود قائم على وحدة هدف من حيث صرامة الاتجاه السياسى نحو المنطقة التى فيهـا انزرع ··· ولكنها وحدة هدف نابعة أصلا ــ ولا تزال تغذيها ــ تخطيطات الحركة الصهيونية ، كماتكونت فى صورتها الحديثة فى أواخر القرن الماضى .

ولكن المجتمع الدولى ، فى ضوء من اعتراف بكيان اسرائيل كدولة ــ اعتراف مؤسف اذ أنها لم تقم الا على انقاض وطن سليب أمعنوا فى تشتيت أصحابه الشرعيين ــ ليفرق اذن ، من واقع نصـوص اصطلح عليها كأساس للتعامل بين الدول ، بين اسرائيل من جهة ، والحركة الصهيونية من جهة أخرى ، وان كنا نعى جميعا ، الاعداء قبل الاصدقاء ، بوجود نوع من ترابط وثيق بينهما .

وان النظرة الموضوعية ــ لن يخالفنى فيها أى متتبع للمراحل التى أدت الى خلق الكيان الاسرائيلى ــ لتؤكد بما لايدع مجالا لشك بانه لولا الحركة الصهيونية لما كانت اسرائيل ، ولولا الحركة الصهيونية لما تدعمت فترى

فيها الدول الاستعمـــارية تلك الأداة المؤاتية لتنفيذ مآربها فى السيطرة على مقدرات الشرق الاوسط .

فاذا قلنا « من هم وراء اسرائيل » ، فان الصهيونية العالمية لهى أخطر تلك القوى التى تقف ممن وراء اسرائيل ، انها خارجية المظهر ، من حيث جغرافية واقعها ، من حيث مختلف الجنسيات التى ينتمى اليها أفرادها ، وأخيرا ــ وان هذه لأخبث سماتها ــ من حيث شذوذ جوهرها وأوضاعها ، فهى فوق طائلة أحكام القانون الدولى فيما تقترف اسرائيل من عدوانات متكررة ، بينما هى العصب المحرك أولا وآخرا .

كلا ! بل ابعد من ذلك ، انها بمثابة الروح من الجسد ، وكأنهما وحدة عضوية من وجود : لاعيش لاسرائيل الا أن تنفث فيها الصهيونية من لدنها نبضا وعصارة حياة .

⊙❖⊙

قامت الحركة الصهيونية على « مبادىء ــ أهداف » أساسية ثلاثة :

أولا ــ التحرك الى فلسطين بهجرات يهودية استيطانية منظمة .

ثانيا ــ انتزاع تأييـــد دولى لما سموه بالحق اليهودى فى مثوى بأرض الاسلاف الاولين .

ثالثا ــ خلق جهاز دائم فتنصهر اشتات اليهود الى وحدة عمل خلف العقيدة الصهيونية .

وليس يعنينا فى هـــذا المجال المحدود استعراض تلك الخطوات التى ادت الى قيام اسرائيل ، فانما هو « فضل حاجة » أو ربما اختصار مخل لأحداث التاريخ بالقياس الى عديد من دراسات شاملة تزخر بها مكتبتنا العربية ، بل أن أتعرض لبعض تلك السمات التى يتميز بها جوهر العلاقة العضوية ، خبيثة الجبلة ، التى تربط بين اسرائيل من جهة ، وبين القوى الصهيونية ، التى هى أس البلاء وما تزال .

اعود فأقول ان المعركة لتهون لو انحصر بينـنـــا وبين دولة محددة المعالم ، محسوبة الطاقات ، فالعدو ليس اسرائيل ، انما هى مجرد واجهة ، دججت بالسلاح ، أى نعم ! متجسدة على حدودنا تتهددها فى كل آونة ! ولكنها ليست الا واجهة بعد كل للصهيونية العالمية ، ذلك النبت السرطانى الخبيث ، استشرى مفترشا مقدرات العالم ، نافذا بلففه الى مشاجرها الغنية ، يبتز لنفسه ماء الحياة من رحيق عصاراتها جميعا .

العدو هو الصهيونية العالمية بتلافيفها الخبيثة المتشعبة ، أوغلت الى كل فج .. قيل انها ربيبة الاستعمار لا عيش لها بدونه ، وهذا صحيح الى حد كبير ، انما الخطورة لو اعتقدنا أنها مجرد تفرعة له ، القضاء على الامل كفيل بالقضاء عليها ، فانها نبت خبيث ، سريع التكيف مع الظروف مهما تقلبت ، عرف ان يمد بركائز الى كل اتجاه ، متنسما مصادر القوى التى تطغى الى ذروة فى كل عصر وأوان ، حتى نجح آخر الامر فى أن يضرب لنفسه فى الارض دعامة ، هى دولة اسرائيل ، أصبح لها بعض عروق ، تجد لنفسها من ظاهر نصوص القانون الدولى سندا وكنفا ،

يستنفران الى صفها ، لو أن هددت فى كيانها ، جلة من دول ، شرقية كانت أم غربية ، آسيوية أفريقية أم لا تينية .. مامن دولة خارج النطاق العربى ثم الاسلامى — بل ان بعضا من هذه الاخيرة لتشذ — الا وتعترف لاسرائيل بما يسمى حقها فى البقاء !

توصلت الصهيونية العالمية الى استغلال التأييد المطلق الذى أمرها به الاستعمار فتخلق لنفسها كيانا وشخصية ودعامة ثم مجالات نفوذ ، ولذا فاننا نتردى الى خطأ فادح لو لم نفرق بين مصيرها من جهة ومصير الاستعمار ، فى مدلوله الشائع من جهة أخرى .

صحيح أن الصهيونية فى صميمها من أخبث انواع الاستعمار ، ولكنها ظلت محجوبة المعالم ، اذ افتقرت — وربما كان هذا سر سطوتها آخر الامر — الى تلك العناصر التى تحدد لها مرتكزات من واقع جغرافى وطبيعة قومية ، فتبدو وكأنها مجرد عوائق تعوذ أو تلوذ بالقوى الاستعمارية ، متشكلة بها كأنها الحرباء ، مستخدئة له — « تتمسكن حتى تتمكن » — فهى لسان حال أجيال بائسه عانت من موجات اضطهاد متزمت أعمى ، آن للعالم ان يختلق لها مأوى ومثوى .. ولكن تلك الا ذرائع — فهى طفيلية الجبلة أبدا ، كما كانت وكما سوف تكون — لاتنى عن السعى ادغالا الى مصادر متعددة ، خليقة اذا ما أمهلتها الظروف أن تهيىء لها ما يعوضها معينها الاصلى لو أن فقدته ، أو أزيح من مكانة الصدارة ، فتستمد من هنا وهناك ومن كل مكان عصارة البقاء .

بل اننا لنسمع فعلا بعض أصوات تتبجح متفاخرة بأن الصهيونية قد أضحت قوة عالمية ثالثة ، اكثر قدرة على التأثير ، طولا وعرضا وعلى المدى البعيد ، من زميلتيها الكبيرتين ، المرتكزتين على قواعد تقليدية ، تقيد من انطلاقاتها بعض الشيء ، أرض تحدها سمات القومية التى اليها تنتمى ، وطبيعة ولاء لمصالح وطنية واضحة الاتجاهات ، فى حين ان الصهيونية فى جوهرها المتميع ، تستقطب من تستقطب بأن ترفع لواء خادعا ، تدعى انها لم ترفعه الا انتصارا خالصا لقيم انسانية طالما اهدرتها طقوس بربرية هى ابدا متولدة عن التعصب الاعمى للدين وللجنس او كليهما معا ، وسالة انسانيــة المظهر تنطلق بهــا من واقع مراكزها المنبثة هنــا وهنــاك وفى كل مكان ، منسـاحة عبر الحدود الجغرافيــة ، مجاوزة اى فواصل كانت حرية أن تكون جامعة مانعة ، لو ان احتوتها قوميات محددة أو مصالح وطنية واضحة السمات والاتجاهات .

أساليب ملتوية توسلت بها آخر الامر الى الربط بين مآربها الخفية وبين التطلعات الحيوية — معنوية انسانية كانت أم مادية مصلحية — لشرائح عريضة من الرأى العام فى عديد من بلاد العالم ، ملجمة بذلك اى اتجاهات مضادة ، وان نبعت من صميم مصالح تلك الدول — كبيرها وصغيرها على حد سواء .

وربما ان كان هــذا ، أصــلا وابدا ، بل انه لكذلك يقينا ! هــدف الصهيونية الاعلى وسر وجودها .. خلق الدولة الاسرائيلية مجرد ذريعة .. فما هى بالموئل ليهود العالم اجمعين ، ولست أعنى بذلك ان اسرائيل لاتسعى الى توسع ، بل انه لضرورة حيوية ، توطيدا لتلك القاعدة التى

هى التجسيد الحى لقداسة تنبؤات المصير ، فتشد اليها قلوب اليهود اينما كانوا ، أنها أبدا ساعية الى توسع ، التهاما لمزيد من أرض وموارد ، استيعابا لمزيد من قوى بشرية ، دعما لكيانها وتأثيلا لوجودها .. ولكن حذار - وتلك من محاذير المحاظير - حذار من المساس بمراكز قوتها الاصيلة ، المتمثلة فى اليهود أصحاب النفوذ السياسى أو الاقتصادى أو المتغلغلين فى ثنايا وخبايا أجهزة الاعلام عبر القارات ، فى عقر الدول ، كبرياتها وصغراها ..

هل سمعنا بأن نزح الى اسرائيل أحد من هؤلاء ؟

هل يمكننا أن نتصور رغم صرخات بن جريون التمويهية (اصطخب بها الجو آنا ، لغرض فى نفس يعقوب ، ثم همدت) بأن كل يهودى رفض الهجرة الى اسرائيل فهو متنكر للصهيونية ، تاكث بمبادئها - بأن ينزح أليها مثلا البارون روتشيلد ، فتصفى مراكز الضغط الذى يمارسه لصالح اسرائيل من واقع سطوته على شرائح عريضة من الحياة الاقتصادية الفرنسية ؟ أو أحد اولئك المهيمنين على عصب وسائل الاعلام فى الولايات المتحدة ، أو المندسين كمستشارين سياسيين لاقطاب الحزبين الكبيرين فيها ؟

لو أن فعلوا لقضوا على أكبر مصادر قوة اسرائيل - التى تمدها بالتبرعات الخيالية من ناحية ، والتى تكيف من ناحية أخرى مناخات لرأى عام متعاطف معها ، مؤيد لها فى تصرفاتها الملتوية ، أو المتبجحة فى رفضها القاطع لعديد من قرارات دولية ... لو أن فعلوا لذوت اسرائيل كالفرع النبيت ، حبست عنه عصارة الحياة ، فيتهاوى حطبا هشيما تذروه الرياح .

وصدق من قال ان الصهيونى انما هو اليهودى الثرى يبذل من ماله لزميله الفقير فيعينه على النزوح الى أرض فلسطين !

الصهيونية اذن أشد خطرا آخر الامر من تلك القوى التى نعتبرها أصولا للاستعمار ، وانا لنرى كيف اتجهت قيادتنا السياسية ، اذ وعت جوهرها الخبيث ، فتمد يدها الى كل من ناصبها العداء ، ولو ظلت له مع دول الاستعمار الكبرى روابط أو علاقات ، وخاصة بعد أن دهمنا العدوان فنفاجأ بمواقف لم تكن فى الحسبان ، لاتتسق قط وتلك الخريطة التى كنا قد قسمنا فيها العالم الى مناطق تفصل بخطوط قاطعة بين شرق وغرب وعالم ثالث قوامه تلك الدول الصغيرة حديثة الاستقلال أو المتطلعة الى مزيد من تحرر .

تأييد ضخم حبتنا به فرنسا ، تلك الدولة الغربية الكبرى ، رغم ماضيها الاستعمارى وقد كان جد قريب ، وربما أرجعنا الفضل الى شخصية ديجول المهيبة ، رجل أعلن عن مبادئه واضحة ، فيتمسك بها ولا يحيد .

موقف يثلجنا باطمئنان من جانب اسبانيا ، دولة غربية هى الاخرى ، ماتزال موثقة الروابط ، عسكريا على الاقل ، بالولايات المتحدة ، ولكن جذورا من علاقات حضارية تجمع بيننا وبينها ، ثم أننا نعرف عنها عداء تقليديا لليهود ، ومن ثم للصهيونية يعود بأسباب الى عهود محاكم التفتيش .

ولكن المفاجأة المذهلة كانت موقف التعــاطف ... أكاد أقول الممالىء لاسرائيــل شذت به دولة تقــدمية عن اجماع الكتلة الاشتراكية ، فلم تساندنا كما كنا قد أملنا ..

بل ان تطورات الاحداث : ومنها حركة التطهير الضخمة التى خاضتها بولندا ، فتنحى عن مناصبهم الحساسة ساسة وقادة عسكريين مبرزين ، جلتهم من اليهود ... ثم أزمة تشيكوسلوفاكيا ، دبرتها مخابرات حلف الاطلنطى ، كما أكدت مصادر حلف وارسو : ولكن رؤوس التسلل الذين وجدوا الطريق ممهدا ، فيتغلغلون الى مرافق الحزب والدولة ، كانوا من اليهود المتعصبــين ، استهلوا موجة الثورة المضــادة بأن أطلقوا صيحات التشكيك فى موقف دولتهــم المنحاز الى العرب ، انقيــادا أعمى لاوامر موسكو .. زعموا !

تطورات عجيبة تكشف لنا جليا أن مجتمعات المعسكر الاشتراكى ، رغم وضوح الرؤية أمام قادته ، الذين يقفون وقفة صــارمة حرية بكل اعزاز وتقدير ، ليست بمعزل تماما عن التأثر بألاعيب الصهيونية ، التى درست دخائل تلك الشعوب ، ، فعرفت كيف أن تمهد لنفسها بالمداخل المواتية ، ضاربة على نغم خادع من اضطهاد مزعوم ، هو الى ابتعاث ضد اليهود فى ذلك الشرق العربى الاســلامى ، ليس دفاعا عن حقــوق استلبتها اياهم الصهيونية فى توغلاتها الخبيثة وانما تعصبا للواء الجهاد المقدس يرفعونه فى تزمت دينى بغيض !

أما عن دول العــالم الثالث ، فقد كان لبعضها مواقف أو جمود حركة خلف أستار من « قرارات لســان » ــ حرية بأن تستثيرنا متســائلين متعجبين ... لولا ضــغوط لاشــبهة فيها ، من جانب الدول اقطاب الاستعمار من جهة ، ولولا تغلغلات خبيثة للقوى الصهيونية ، تفوح رائحتها فتزكم الانوف .

اسرائيل هى الترسانة العسكرية التى تواجهنا بغل مسعور ، باخطار تتهددنا مباشرة من واقع مميزات استراتيجية أكسبها اياها عدوان الخامس من يونيو ، فلا غرو أن تستحوذ على اهتمــاماتنا الملحة فى تلك المجابهة السافرة التى أصبحت لها موازين تتأرجح بين انتصار أو دمار .. فنقول وهو القول الصدق .. بألا يعلو صوت على صوت المعركة .

ولكنى اعود فاقرر انها ليست الا امتــدادا لقوى خارجية ... قوى الاستعمار أولا من حيث تلك المعركة التى علينــا أن نخــوض حين تدق ساعتها ، ولكنها قوى ماكان يعنيها أن تبــذل لاسرائيل مابذلت لولا أن وجدت فيها الأداة القادرة على تحقيق مآربها ، وهى لم تصبح كذلك الا بفضل الصهيونية العالمية ، نفثت فيها بما يصلب عودها ، وما تزال ماضية فى اعتسار عناصرها المتضاربة الى تلاحم نحو أهداف محددة .

فهلا ان بذلنا بعض جهود فى زعزعة الاصل بينا نواجه الفرع ! وفى هذا الوقت بالذات اذ تكشفت لشرائح عريضة من الراى العام العالمى حقيقة اسرائيل ... فى سعيها السافر الى توسع ، فى طبيعة سياستها العنصرية تجاه العرب فى المناطق المحتلة حديثا ، فتفوح رائحة تصرفاتها التى كانت

قد نجحت حتى اليوم فى التستر عليها تجاه العرب فى المنطقــة التى كانت اغتصبت بادىء ذى بدء .. واخيرا وليس آخرا فى مواقفها المتبجحة ، المتحدية لقرارات مجلس الامن مره بعد اخرى ...

نعم ... فى هذا الوقت بالذات ، وقدانقشعت ، بعض الشىء ، الغشاوة عن أعين المسـئولين فى عديد من دول ، فيتكشف لهم اين الولاء الحقيقى للهيئات الصهيونيــة المنبثة فى صفوف جماهيرهم ؛ مهيمنة على وسائل الاعلام ، مسيرة لتيارات الاقتصاد القومى ، منحرفة بالاتجاهات السياسية للوطن ، دعما للوجود الاسرائيلى ، ولو كان هــذا على حساب ــ بل على انقاض ــ المصــالح الحيوية للدولة التى أضفت عليهــم من جنسيتها حماية وكنفا !

هل ترانى أتوه بخيال خلف سراب من تمنيات ! كلا ...

فلست ألقى بالقول على عواهنه .. فانى لاذكر ، ضمن ماأذكر ، ثورة فرونديزى ــ رئيس جمهورية الارجنتين الأسبق ــ عارمة حين اختطف ايخمان .. ثورة عارمة على ما اعتبره تحديا سافرا لسيادة الدولة من قبل المنظمات الصهيونيــة الارهابية ... خلقت لنفســـها سلطة دولة داخل الدولة ...

ودولة اسيوية فتيــة انقلبت فجأة على زمرة من خبراء اسرائيليين ، تطردهم شر طردة ، كانوا قد أوفدوا اليها بالمئات ، فينشئوا مشاريع زراعية على غرار ما ادعوا من نجاح لجماعيـــات « الكيبوتزيم » ، تحت اشراف مؤسسات يديرها نفر من صهاينة : فاذا بها ستار من نصب واحتيال ، لاذوا من ورائه بآلاف مؤلفة من دولارات ...

ثم تصرفات مريبة تكررت فى عدد من بلاد نامية ، من جانب مؤسسات مالية يديرها يهود ، فاذا ما استشعروا تشكك السلطات المحلية ، سارعوا الى تصفية أعمالهم ، لائذين الى اسرائيل بمبالغ ضخمة من اموال ... فتهتز اقتصاديات تلك البلاد ...

أحداث مرت ، كان لها أصــداء محلية عنيفة ، نجح النفوذ الصهيونى والاستعمارى فى اخمادها بعد لأى ... كان حريا بنا لو كنا لها متيقظين ــ ليس من حيث رصـدها وحسب ... كما حدث فعلا ، فتتحول الى مجرد رصيد خامد من كشوف معلومات مآلها الى رفوف المحفوظات ــ ــ بل أن تتناولها فورا أجهزة متخصصة ، على نطاق الدول العربية جميعا قادرة على التحرك متآزرة ، فنعتصرها الى نتائج مؤثرة ...

ولكن أبرز من هذا كله ... ذلك الاقتراح المتواضع ، أو قل انه كان مجرد نداء ، اثار بعض اضطراب فى اوساط الصهيونية الامريكية ، تقدم به منذ سنوات أحد الوفود العربية فى اجتماعات اللجنة السياسية لهيئة الامم ، حثا للدول أن تعتبر الهيئــات الصهيونية فى بلادها ، ممثلة لجهة أجنبية ــ فلا تتمتع بما تتمتع به الهيئات الاهلية من اعفاءات ضرائبية .. نداء لو أن توبع لكان خليقا بأن يحبس ، عن اقتصاديات الدولة الاسرائيلية ومن ثم عن ميزانيتها العسكرية ، جلة من اموال طائلة تستحلب بالخديعة لاعمال رصدت كما يقال لاغراض انسانية من بر أو زكاة !

أهي سمادير من أحلام يقظة انفثها بخيال محلق الى جوزاء انعدمت فيها معايير الأوزان المنطقية ؟ أم انه نداء أعقبته ، ربما عفوا وليس عن قصد، جلسات صاخبة فى مجلس الشيوخ الامريكى، فتتكون لجنة استقصاء من أعضاء لهم مكانتهم ، فتجرى تحقيقات عن مآل الاموال التى تجمعها بعض المؤسسات الصهيونية ...

لجنة استقصاء توقف نشاطها مع الاسف ، اذ يرتقى جونسون الى مقاليد الرئاسة ... ولكنها تحقيقات سجلت فى محاضر رسمية ، دليلا قاطعا على وجود اتجاهات مضادة للصهيونية جديرة بأن تتابع ، خاصة انها تمس منها العصب الحساس والذى هو معين مواردها المالية .

مناخات تشير الى ان هناك ، ومتناثرة فى كل مكان ، جذا من عداء للصهيونية ــ ربما متولدة عن عداء متأصل لليهود ــ خابية ربما ولكنها منطوية أبدا على قابلية اضطرام ... هذا فيما قبل الخامس من يونيو ، فكيف بها الان وقد تكشف وجه اسرائيل فى بشاعته العنصرية التوسعية

ثم مناخ آخر ، من سخط عارم يجتاح أوساط زنوج امريكا ، خدعوا من قبل اذ ظنوا اليهود يتزعمون حركات الدفاع عن حقوق الاقليات ، فاذا بهم رؤوس الاستغلال الاقتصادى فى مجالات الاسكان والتجارة الاستهلاكية فى الاحياء البائسة التى يقطنون .

مناخ يصعب استغلاله الا ان نتوخى الحذر الشديد ، ولكنه مناخ دال على أى حال ... متكرر الملامح حيثما يتصدر صهاينة من يهود حركات المطالبة بحقوق الاقليات أو يتسللون الى صفوف الاحزاب التقدمية فى العالم الغربى التى تنادى بتحرير الانسان من صنوف الاستغلال .

ان واجبنا يحتم علينا ــ فى هذه الظروف العصيبة ــ ان نخطط لمجابهة اسرائيل ... ان نخطط لازالة آثار العدوان .. ولنا كل العذر ، فهى التجسيد الحى للاخطار التى تتهددنا ، مدججة بحديد ونار ...

ولكن هلا ان وجهنا بعضا من جهود الى الاصل .. ايهانا للفرع ! فلو ان فعلنا فلسوف يذوى متهاويا آخر الامر !

ثم ان الصورة التى قدمت عن الصهيونية لتوضح بجلاء أنها فى جوهرها ليست خطرا يتهدد العالم العربى فحسب . وانما ــ فى غفلة من رأى عالمى ختلته الدعايات وكأنه السحر الاسود ــ كيان لاعيش له الا بابتزاز مقدرات الشعوب ، لا قائمة له الا أن يستبيح لنفسه مصالح الغير أينما تكون ، لايعنيه أن هى تهالكت آخر الامر أو تقوضت !

فمزيدا من ثبات واعتداد ! فهناك القدر قد اصطفانا مرة أخرى حملة لواء رسالة عالمية ، انقاذا لشعوب الارض جميعا ، بله جمهرة اليهود أنفسهم ، غررت بهم كهانة الصهيونية !

نعم ... فان أعسر ماجوبهت به الصهيونية ــ لو ان تتبعنا تاريخها ــ هو تحقيق استقطاب اليهود خلف المبدأ الثالث الذى أعلنوه فى مؤتمرهم الاول ببازل فى أواخر القرن الماضى ... مؤتمر لم يحظ وقتئذ الا بتأييد أقلية ضئيلة من غلاة متعصبين ...

لسنا هنا بصــــدد استعراض الظروف أو التخطيطات الملتوية ، بل وعمليات الارهاب التى اعتسرت اليهود الى مجموعات ضاغطة طوع بنان المؤسسة الصهيونية بتغاويلها المسعورة ...

ولكن الذى أريد أن أقول انه مهمــا تجشمنا من جهد فى سبيل ايهان الصهيونيــة ، فان تقوضها الفعلى رهن بأولاء القــادرين على نسفها من داخل ... أولئك اليهود ، تقلصت أعدادهم الى قلة قليلة أى نعم ! ولكنهم قادرون بفضل من استنارة فكر ومن شجاعة مواقف ــ يتخذها بعضهم بالفعل ــ أن يهتكوا الاستار عن وثنية العقيدة الصهيونية .

مضى الوقت الذى كنا نسمح فيه لبعض أوساط ، لم يكن لها من هم الا الكلام لمجرد الكلام ، أن ترفع عقـيرتها مؤكدة ــ وكأنها حقيقــة لاتقبل نقاشات ــ « بأن اليهودى يهودى مهما قال » ، تعنى بذلك أنه صهيونى الجبلة وان افتعل التصدى للفكر الصهيونى ... « أن هى الا خديعة وتمويه ... »

كلا ... بل انهم أقوى حلفائنا فى المعركة التى نخوض ، وربما أبعدهم أثرا على المدى الطويل !

ذلك هو احد المبــادىء التى يرفع لواءها عاليا ، فى وعى ينم عن نضج فكره السياسى ، الشباب الفلسطينى المكافح فى سبيل استعادة حقه السليب ... « لسنا ضد اليهود ، وانما عدونا هو نظام الحكم العنصرى الذى فرضته الصهيونية من خارج على أرض السلام » ...

تلك الارض التى عاش على سطحها خلال أجيال وأجيال ، أبناء الاديان السماوية متوائمين متآخين ، تظلهم جنسيــة فلسطينية سمحة ، دون تفرقة .. دون تعصب حاقد لسيادة عنصر و دين !

□□

العالم الثالث ..
أبعاده واتجاهاته

ماهو العـــالم الثالث ؟ وما هي البلاد التي ينتظمهـا وأين تقع ؟ وهل ثمة رقعـــة جغرافية تربط بينها ؟ أم ان الذي يربط بينها هو التسلسل التاريخي لكفاحها ؟ وأي كفاح هذا ؟ أهو نضال ضد قوى غاشـمة تتهـدده أم صراع يبغي التغلب على ظروف قاسـية تحيط بواقعه ؟ فاذا كان نضـالا ضد قوى غاشمة ، فما هي تلك القوى ؟ أهي عسكرية متربصة به أو جاثمة من فوقه ، أم أنهـا احتكارية استغـلالية تعتصر ثرواته تحت ستار من استقلال زائف ؟ واذا كان الكفاح مغـالبة لظروف قاسية فما هي تلك الظروف ؟ أهي طبيعـة شحيحة بخيراتهـا أم أوضاع تخلف فرضت على الشعب ؟ أهي نقص في الخبرة الانتـاجية أم عوائق اجتمـــاعية قصرت به عن بلوغ كفاية في الانتاج وأهدرت عدالة التوزيع ؟ أم انها كلها جميعا نختزلها في تركيز شـديد حين نقول ان العالم الثالث هو ذاك الذي يمتد « من باندونج الى هافانا » ؟ . .

محور جغرافي يكاد يستقطب شعوب العالم الثالث ، ولكنه أيضـــا وفوق ذلك عنوان حي لقصة تلك الشعوب في صراعها المستمر ونضالها المتصل ثم انه اشارة أيضا الى المنهاج الذي يعينها على أن تستكشـف الأواصر التي تجمع بين بعضها البعض ، وعن امكانياتها الدفينة وطاقاتها المعطلة أو مصادر ثرواتها المنهوبة ، فيرتسم أمامها طريق التعاون فيما بينها مخرجا لها الى مستقبل أفضل لها جميعا .

جغرافيا يمر المحور بالقاهرة ، ولكنه تاريخيا ونضاليا لا يكاد يريد أن يجاوزها ، فقد تعددت لقاءات شعوب العالم الثالث ، تطوف بعواصم دولها ولكنها تجد نفسها مشدودة أبدا الى القاهرة لا تكاد تغادرها حتى تتطلع الى العودة اليها ، فهنا قلبها ولسانها ، وهنا عزيمتها وشكيمتها ، تلتقي على أرضها الشعوب مرة بعد أخرى وتعلن منها وباسمها قراراتها فهي اقتصادية تهدف الى تنمية ، أو غير منحازة تشجب العدوان وقواعده العسكرية ، أو أفريقية تدين التفرقة العنصرية وترفع لواء الحـــرية والتحرر ، جميعها في روحها ونصها تتصدى للاستعمار قديمه وجديده ، وتكشف عن أقنعته وأســاليبه ، وتدعو للســلام رعاية للتقدم في جميع الاوطان ، وتنادي بالتعاون من أجل الرخاء فلم يعد هناك مجال لافتعال رفاهية لقلة من أقوام على حساب الشعوب ، امتهانا لحقوقها واستنزافا لمواردها . .

جميعها فى روحها ونصـــــها ، كما لابد وان شعرنا : تلتزم خطوط السياسة الخارجية التى اعلنها الميثاق على الملأ ، فلا غرابة اذن أن تشعر الشعوب فى قرارة نفسها ، رضى بذلك بعض من حكامهم أم داوروا ، أن القاهرة هى القلب والعصب منهم جميعا ..

ولكن الطريق أمام دول العالم الثالث ليس سهلا ميسرا ، بالرغم من انه يشدها الى بعضها البعض روابط قوية خلقتها آمال شعوبها ، فهى تتعثر فى تنفيذ القرارات التى تجمع عليها ، يعوقها عن الانطلاق اليهـا التفاوت الكبير بين ظروفها وأحوالها ، فهى درجات بين القدرة عليها أو القصور عنها ، بل ومن حيث وضوح الرؤية أمامها ، اذ يمضى بعضـها قدما بينما يبعثر الآخرون جهودهم الى متاهات من تفاصيل بعيدا عن اللب والجوهر ..

ثم ان اسمها هذا الذى اطلق عليها : أريد به تصويرها — على غير حق — انها تقف موقفا وسطا بين الكتلتين الكبيرتين ، ليس من حيث العقيدة الاجتماعية أو من حيث النظام الاقتصـادى وهما اعتبـــاران ايجابيان ، وانما من حيث انها أرض مشــــاع بين الكتلتين يدور على صفحتها صراع يتمثل من ناحية فى سيطرة استعمارية تزعزعت قواعدها بعض الشىء وفى الناحية المقابلة مبادىء شيوعية تبثها الكتلة الاخرى بين صفوف شعوبه علها ان تنتزع السيطرة فى النهـاية ، فالكسب للكتلة التى تفرض نفوذها آخر الامر على عدد أكبر ومساحات أوسع وموارد أوفر ..

وانها لصورة خاطئة ، فان شعوب العالم الثالث هى فى حقيقتها تلك التى تسعى الى توكيد شخصيتها ، اعتمادا على صميم واقعهـا فتجد لشعوبها مكانها تحت الشمس ، فهى اذن شعوب حرية بأن تكون قد فهمت عن وعى الروابط الوثيقة التى تجمع بينها ، فتخطط للتعـاون بينها ايجابيا وتقدميا تجاه التكتلات الاستعمارية على الاقل ، ولكن هذه اذ تتكتل رعاية لمصالح مشتركة محددة المعالم ، فان الذى يربط بين دول العالم الثالث هو التشابه فى واقع الحال ، وقليل منها هو الذى تعدى هذا المفهوم فحدد المصالح المشتركة فيما بينها فى صورة ايجابية واضحة فاذا ما تجمعت كانت العاطفة أغلب على تصرفاتها من التفكير الهادىء الرزين القادر وحده على أن يقودها الى التخطيط المشترك ، ولذا فاننا نراها تهب وقد اتقدت مشاعرها اذا ما وقع اعتداء صارخ على بلد شقيق ولكن سرعان ما تتراخى عن المضى فى تنفيذ ما تكون قد أجمعت عليه ، وقد انجذبت كل منها الى دوامة مشاكلها الخاصة ، التى تختلف اختلافا كبيرا من بلد الى آخر تبعا لاختلاف الظروف والاحوال كما سبق وأشرنا

ما هى اذن تلك الروابط التى تجمع بين شعوب العالم الثالث ؟ وماهى المتناقضات التى تحول بينها وبين التعاون الايجابى ؟ ثم ما هى الاخطار المتربصة بها جميعا ، أو تلك التى خطط لها ان تتصيدها شعبا بعد آخر كما يبدو واضحا من اتجاه الاحداث مؤخرا ؟ ..

أبرز العوامل المؤثرة هو أن شعوب العالم الثالث خضعت للاستعمار بل ما يزال بعضها خاضعا له حتى الآن ، فاستنزفت ثرواتها لصـالح

الدول الرأسمالية الكبرى وفرض عليها التخلف عن ركب الحضارة ، من حيث ثقافتها الفكرية ، وعن ركب التقدم العلمى من حيث مستواها التكنولوجى ؛ ولكن درجات تخلفها تلك تتفاوت من بلد لآخر لاسباب عدة ..

فمنها دول عريقة ، لم يستطع الاستعمار ان ينال من جذورها الحضارية العميقة ، فهى قادرة بأصالة رجالها أن تجمعهم من حولها بعد تحررها فترتفع معهم وبهم الى مستوى تحديات العصر .

ومع ذلك فان بعضا من تلك الدول تشدها الى الماضى نظم اجتماعية بالية مريضة ، أخطرها الفوارق الطبقية الموروثة ، ثم النزاعات الطائفية أو الدينية ، تقسم الشعب الواحد الى بلاد ، كل عدو لشقيقه لدود ، بل وتقسم الشعب داخل البلد الواحد الى فئات متنافرة أيسر عليها أن تلتقى مع الاجنبى من أن تلتقى مع بعضها البعض ، وأشد من ذلك وأنكى أن تبقى فيها حية تلك المعتقدات التى تحول بينها وبين ما يسر لها الله من رزق حلال فيما كان حريا أن يكون ثورة لها حيوانية مثلا ، فاذا به عبء فادح تنوء به اقتصادياتها .

ثم شعوب أخرى وقع الاستعمار على صميم كيانها ، كما هو الحال فى بعض أنحاء افريقيا ، فأصابها بضربات قاصمة ؛ اذ خطط لها حدودا مصطنعة تفرق الشعب الواحد الى جنسيات عدة وتجمع بين اشتات من شعوب مختلفة ؛ هى فى الاصل متنافرة ؛ فى اطار واحد ، هؤلاء تفرض عليهم ثقافة أوروبية واحدة وأولئك الى ثقافات متباينة ، ويزيد الاستعمار من ضراوة المتناقضات بأن يبث بارسالياته التبشيرية ؛ لا تدعو الى جوهر التعاليم ، بقدر ما تدعو الى معارضة المذهب للمذهب وحقد الدين على الدين ..

هنا تقابل ضياع الشخصية ، ثقافيا واجتماعيا اذ يقود الشعوب بعد تحررها قلة من متثقفين نهلوا من مصادر أجنبية ، انبتت صلاتهم بجذورهم الاصيلة التى ما تزال حية فى قلوب جمهرة الشعوب ، فعناصر تكوينهم متصارعة داخل نفوسهم دون أن يدروا لذلك سببا ، انهم فى حقيقة أمرهم حطام مراحل هدم تعانيها شعوبهم ، يعتقدون انهم انما خلقوا ليخلفوا المستعمرين فى الحكم ، يتهافتون على مظاهر الابهة التى كان ينعم بها هؤلاء ، وكأنما هى عناصر القيادة الاصيلة ، ولكنهم فى حقيقة أمرهم يحيطون أنفسهم بسياج عازل فينفصلون انفصالا تاما عن تلك الشعوب ؛ اللهم الا فى بعض حالات تمكن فيها الزعماء من أن يغوصوا الى أعماق شخصيتهم ، فيحددوا لانفسهم مكانتهم الحقة ولا يصيبهم الغرور ، فيعرفوا انهم مجرد جيل انتقالى ، رسالته الاساسية ، كما يقول سيكوتورى ، ان يمهد للاجيال القادمة التى سوف يكون على يدها انطلاق الشعوب الى رحاب المستقبل ..

وفى أفريقيا أيضا ، بعض من بلاد شاء لها سوء الحظ أن تكون معتدلة الاجواء ، فاجتذبت آلاف المهاجرين من البلاد الاستعمارية ، يفدون عليها بغية الاستيطان ، فيضيقون على سكانها الاصليين ويطاردونهم أينما حلوا يودون لو استأصلوا شأفتهم فلا يجد هؤلاء من سبيل الا رفض كل

جديد ، حيث أنهم لم يعرفوا الجديد الا مرتبطا بذلك الخطر الداهم الذى يتهدد وجودهم نفسه ، فيكون الارتداد كليا الى الماضى السحيق ، حتى وان كان بعض منهم قد أصاب من ثقافة أوربية ، بل ربما كان هؤلاء النفر أقدر حينئذ على تولى زعامتهم فهم أدرى بأساليب العدو الذى يمسك بخناقهم ، فاذا تفجرت ثورتهم على الاستعمار كان قوامها المعتقدات ، عميقة الجذور ، كما حدث فى كينيا ابان ثورة الماو ماو ..

وفى العالم الجديد ، عالم الهجرات والتهجير المفروض ، خليط من سكان أصليين تزووا الى أعالى من جبال تعصمهم ، أو دفع بهم الى أحقر الاعمال وادناها ، وجموع من سلالات الرقيق الذين اجتلبوا ، خلال عصور المد الاستعمارى ، اذ كانوا أقدر على احتمال ما سخروا له من أعمال مضنية ، يساق بهم تحت لهيب السياط الى مناجم المعادن الثمينة تتخم بها خزائن الدول المستعمرة ، أو الى انشاء الضياع الشاسعة وقفا على الحكام الذين أرسلوا للاشراف عليهم ، والمغامرين الذين هرعوا الى الكسب السريع الرخيص وقد تحولوا بعد الاستقلال الى ارستقراطية حاكمة مترفعة ، يسرت لها التقاليد التى ابتدعوها الاحتفاظ عن طريق نفر من أبنائهم بالسيطرة على مقاليد القوات العسكرية التى انشئت محلياً ، حتى أصبحت الانقلابات المتكررة لعبتها وتسليتها ، اللهم الا اذا استثنينا القليل من تلك الدول التى ساد بها الكفاح الى وهج من روح قومية فصارت الى تماسك واندماج بين تلك السلالات المتباينة ، ولكن قبالة هذا نرى فى تلك البلاد أن ضآلة الكثافة السكانية بالقياس الى غناء الموارد والامكانيات ، تخلق فيهم روحا من سماحة أو عدم اكتراث تجاه احتكارات الاستعمار الجديد ، تنبث بين ربوعها ، دون تقدير سليم من جانبهم لما تنطوى عليه من أخطار على اقتصادياتهم ، بل ربما قوبلت بالترحيب من بعض الاوساط لما تغمر به الاسواق من انتاج متقن ، ولما تقدمه لهم من عائد يبدو ضخما بالقياس الى دخلهم القومى ، وان لم يتعد فى حقيقته الفتات من جمهرة الارباح المستنزفة الى جيوب الرأسماليين العتاة ..

ويتضح لنا من هذا العرض السريع ان شعوب العالم الثالث وان جمع بينها الشعور برفض الاستعمار ، احساسا عميقا منهم بأنه قد ارتبط بشكل ما باعراض التخلف التى أصابتهم جميعا ، الا أن ظروفهم تختلف اذ اختلف واقعها حين دهمها الاستعمار ، كما اختلف وقع الاستعمار عليها وتباينت صوره فتباينت بالتالى أوضاعها تجاهه من حيث تأثرها به ، ومن ثم نظرتها اليه .

انها جميعا ترفض الاستعمار ، أو نقول انها ترفض صورته السافرة على الاقل ، تطلعا الى التغلب على تخلفها المروع ، ولكنها تختلف اذ تبحث عن طريقها الى ذلك الهدف السامى ، فمنها من يرى ان الطريق انما هو الثورة الجذرية ، اعتمادا كليا على امكانياتها البشرية والمادية تعبئها تعبئة شاملة فى نمط اجتماعى وسياسى جديد ، لا محل فيه لاستغلال يعوق الانطلاق ، بل تعاون وثيق بين أفراد الشعب جميعا فيه التزام بالواجبات

لصالح المجموع دون ما تعد على حقوق الفرد ؛ لا يتأتى الوصول اليه الا فى ظل من حرية المواطن ينتظمها التخطيط الاشتراكي المنبثق من واقع الوطن وامكانياته ، مع الحفاظ على حرية الوطن من كل سيطرة أجنبية أو ارتباط بصراع الكتل ، والا انحدرت ببلادها مرة أخرى الى مناطق النفوذ » انها ترفض الاستعمار ونظمه الرأسمالية التى لا تقوم الا على الاستغلال وان تسترت خلف واجهات من ديموقراطية ، أريد بها فى حقيقتها خدمة طبقات معينة ، انها تعتنق الاشتراكية ، ولكنها ترفض الانخراط فى المعسكر الشيوعى ، فاشتراكيتها منبثقة من صميم واقعها بقيمه الروحية والثقافية ، واشتراكيتها ترتكز على واقع من أمكانياتها دون أن تنخرط بها الى تخطيطات هى فى خدمة التكتلات الاقتصادية والعسكرية التى خلقها المعسكر الاشتراكى فى مواجهة التكتلات الرأسمالية ولكنها فى الوقت نفسه تفتح أبوابها للتعاون المثمر غير المشروط مع الجانبين ، وصولا الى تقدمها الوطنى والى فجر تؤمن بأنه سوف يصطبغ على البشرية جمعاء ..

ولكن هل هذا هو حال شعوب العالم الثالث الاخرى ؟ . انها جميعا تبحث عن الطريق وسط ظروف قاسية بينما يجرى بها الزمن ، فالتقدم العلمى المذهل يقفز بالدول الصناعية الكبرى « رأسمالية كانت أم شيوعية الى مزيد من غناء وقوة بينما تركت هى الى اقتصاديات هزيلة ، قوامها فى أغلب الاحيان محصول واحد من مواد أولية ، تتحكم الاسواق العالمية والشركات الاحتكارية فى تصريفه ، ثم فى سعره اذا تيسر التصريف ، دول العالم الثالث اذن فى سباق متوتر الاعصاب مع الزمن ، نجاتها تتوقف آخر الامر على ثروتها البشرية وقدرات أبنائها على البناء والانتاج ولكنها فى كل بلدة تختلف عن الاخرى من حيث تركيبها الاجتماعى ومستواها العلمى والثقافى ، وعليها أن تغوص الى أعماق تلك النفوس فتصهرها الى وحدة فكرية قادرة على أن تجمع بينها حول وحدة من هدف ، أو على الاقل حول وحدة من عمل ..

وهنا تكون فى موقع أفضل بين شعوب العالم الثالث ، تلك التى كانت تستند الى حضارة عريقة ووعى متقدم ، ثم صهرها النضال فى سبيل التحرر من ربقة الاستعمار ، تلك التى نالت حريتها بفضل كفاح متصل انتظم الجماهير فانبثق من بين صفوفهم ضمير قومى الف بينهم جميعا أما تلك التى جاءها الاستقلال عفوا نتيجة لظروف دولية خارجية ، أو تفضلا من الدول الاستعمارية تسارع به اليها فى صورة من واجهة زائفة من طبقة حاكمة عميلة ، فانها تخدع الشعوب عن مواصلة النضال وتتركها راكدة الى كيانها الاجتماعى المتخلف ، فيتيسر بذلك للاستعمار المضى فى استغلال موارد البلاد تحت أقنعة جديدة .

وسيلة الشعوب الى التحرر اذن هى عامل آخر مؤثر ، يؤدى الى إختلاف الاوضاع فيما بينها ، بل أن الاوضاع تختلف ايضا فى تلك الدول التى نالت استقلالها عن طريق الكفاح ، فانها وان تآلفت قلوبها حول ضمير قومى متأجج المشاعر ، الا أنه قليلا ماتنجح طوائفها اذا ما استقلت البلاد وأتى وقت البحث عن الطريق ، أن تتفق فكريا عن المنهاج ، وخاصة اذا كان مثقفوها قد نهلوا من مصادر عدة : متضاربة العقائد .

فمنها تلك التي اتحدت طوائفها في معركة التحرير ، ثم اذا بها قد انقسمت حين كان الاستقلال الى يمين ويسـار ، فلا يرى الزعيم الا الموازنة بينهما حفاظا على الاستقرار الداخلى ، الى حين قد يطول أمده فتنقلب الموازنة ، والتى تحمل دوما في طياتها جرثومة الانفجار ، الى موقف مستحكم يعوق تكوين الطليعةالتى يمكنها أن تكون النواةالحقيقية للوحدة الفكرية ، أو أن يكون الشعب متخلفا تخلفا مروعا فكريا وثقافيا لا تزال تشده الى الماضى انماط اجتماعية قبلية ، فيرى الزعيم أن لامحل فى سباقه مع الزمن ، للانتظار حتى يرتقى بوعيهم فيجدوا طريقهم ؛ بل يفرض عليهم تلك الاوضاع التى تخيلها صالحة لهم ، ثم يسـوقهم الى العمل سوقا ويعنف بهم أشد العنف ، فلا يرون آخـر الامر الا أن الاستقلال دفع بهم الى سخرة أشد وأنكى من السخرة التى كان يفرضها عليهم المستعمر ، اذ يعجز وعيهم المتخلف عن ادراك الهدف منها ؛ أما انصاف المثقفين الذين نعموا بميزات مادية ومعنوية فى الاجهزة الادارية او الفنية أو العسكرية حين كان اسـتعمار ، فاذا بهم مطالبون اليوم بالتضحية فى سبيل صالح عام لا يرون له تباشير فجر قريب .

والاحداث أمامنا تعطينا الامثلة لما يمكن أن تتمخض عنه الاحداث فى هذا البلد أو ذاك ، فان الزعيم هنا أو هناك يجد نفسه مضطرا آخـر الامر الى التغطية على مشاكله الداخلية ، فيجذب الانتباهات الى المحيط الخارجى ، يغالى فيها حتى ليكاد يناطح سحب الخيال ، منفصلا بذلك عن الواقع الحى ، ويضيق بكل نصيحة صادقة أو مراجعة مخلصة من اقرب أعوانه فيرميهم بالخيانة ويطيح بهم ، تاركا بذلك الفرصة سانحة لتسلل المنافقين والمتزلفين ، يحيطون به حتى لا يرى الا انه رائد القوى الثورية الصاعدة فى كل مكان وزمان ، أو مسيح قارة بأكملها ، اصطفاه القدر ليجمعها الى دولة واحدة ، وفى كلتا الحالتين تتحول المتناقضات الداخلية وقد أهملها ، مرتعا لمؤامرات الاستعمار ، فيقع الانفجـار أو يتيسر للعملاء تأليب الموقف على مصـالح الشعوب الى سلسلة متصلة من نكسات . .

ثم هناك ، وما أكثر الصور التى تقابلنا ، دول رأت بحق ان الاستعمار هو ذروة الراسمالية ، وانهم لم يعرفوا الراسمالية فى بلادهم الا قائمة بسند من الاستعمار ، فيتجهوا بكل قوة الى الاشـتراكية لا يحاولون البحث عن صورتها وتطبيقاتها التى تلائم أوضاعهم ، وانما يجاوزونها دون درس أو تريث ، الى المعسكر الشيوعى ، فتجربته حية أمامهم ، يقبلون عليها بقضها وقضيضها ، هل أقول عن ايمان ، أم هو عنـاد يعميهم عن واقعهم ، نكاية بالمعسكر الراسمالى ليس الا ، وهذه حال بالغة الخطورة على مستقبل العالم الثالث ، خاصة اذا كانت الدولة التى تنهج مثل هذا المسلك تقف وحيدة على مشارف مناطق نفوذ استعمارى مقيم ، كان حريا أن تصير الى مثل يحتذى لشعوب تلك المناطق المتطلعة الى التحرر من ربقة الاستعمار الجديد ؛ فتصدم فى آمالها ، اذ يعمد خصومها الى تصوير رائدها الى الحرية انما نجت من تبعيته لتقع فريسة تبعية أخرى ، وخاصة اذا كانت قيمها الروحية المتأصلة فيها لاتستسيغ بعضا من مفاهيم الاشتراكية الشيوعية .

أما تلك الشعوب التى نالت استقلالها عفوا أو أضفيت عليها واجهاته الزائفة قبل ان ترقى بكفاحها الى مستواه،فانها فى الاغلب والاعم خاضعة لحكومات عميلة أو تسيطر عليها طبقة مثقفة قصيرة النظر ، يبهرها التقدم العلمى والتكنولوجى للدول الاستعمارية ، فترى انها انما تخلفت لان تلك سبقتها ، وان طريقها الى التقدم هو نفس الطريق وليس مايمنع بل انه يتحتم عليها الا ترفض العون منها ، بل تلح فى طلبه بقيوده وشروطه يغريهم بريق خادع من ثروة وسلطان ، بينما الاستعمار ماض كما كان فى استغلال موارد شعوبهم ، وسرعان ما تتكاثف الحواجز بين تلك الطبقات الحاكمة وبين الشعوب اذ يتفتح وعيها ، فلا مفر أمامهم من بذل مزيد من ولاء وتبعية لأسيادهم المستعمرين ، على أن تكون القواعد العسكرية والاحتكارات الاقتصادية حماية لهم وضمانا لاستمرار بقائهم حيث العروش والقصور والسطوة الكاذبة .

ذلك هو العالم الثالث ، صورة تعددت فيها الخطوط وتشابكت متصادمة فى الوانها الصارخة ، ملتحمة فى منعطفاتها الى تطلعات بعيدة عن واقعها المرير ، ومن حولها يقف الاستعمار طامعا متربصا ، متشبثا بمواقعه القديمة أينما تكون .

انه لم يبال بها حين تجمعت أول ما تجمعت فى باندونج ، وأى تجمع كان هذا ؟ قلة قليلة من حكومات لا تمثل جمهرة تلك الشعوب ، ومن بين تلك الحكومات عدد مرتبط به فى تكتلاته العسكرية وفى مواقع احتكاراته ، حرى بأن يدفع عنها وان يدافع فى سبيلها . ولكن باندونج كانت الجذوة التى الهبت مشاعر جميع الشعوب المستضعفة ، اذترددت أصداء ما القى من كلمات فى ذلك الاجتماع الى أنحاء العالم جميعا ، وطارت القرارات عبر الفواصل والحدود فنفذت الى القلوب ، وتحركت بعض من دول باندونج الى ميادين العمل الجدى ، تنادى بالحرية والتحرر وبالقضاء على الاستعمار ، وان السبيل هو الاشتراكية فى الداخل وعدم الانحياز فى الخارج .

وكان الجو الدولى واحتمالاته قد يسر السبيل لالتقاء القوى التحررية فى العالم أجمع بفضل التقدم العلمى المذهل الذى أسقط الحواجز التى كانت تفصل ما بين الامم فعليا وفكريا ، كما حقق لها ظهور المعسكر الشيوعى فى مواجهة المعسكر الرأسمالى ، حرية من حركة ، وقدرة على مجابهة القوى المادية المستغلة ، بقوى معنوية قادرة على التعبير عمايختلج فى قلوب تلك الشعوب من على منابر اللقاءات الدولية فى الامم المتحدة وغيرها ، ثم من عواصمها هى أثناء لقاءاتها فيما بينها ، غير منحازة كانت أم أفريقية ، اقتصادية أم فنية ، الى غير ذلك ، فأصبح لصوتها ثقل يعتد به فى تشكيل وتطوير الضمير العالمى .

ووقف الاستعمار مشدوها أمام هذه التطورات المذهلة ، فى حيرة من أمره الى حين ، ثم استجمع قواه وازمع ، وقد شعر كما شعر غيره ان القاهرة هى ، كما سبق وأشرنا ، القلب والعصب من شعوب العالم جميعا ، فكانت مغامرة السويس ، باء منها بالفشل مدحورا ، وبدا أن

قبضته تتراخى وان ارادته تسلم وتستسلم ، حين بدأ يحمل عصاه فيرحل عن بلد أثر آخر واقليم بعد اقليم .

وتلك كانت خديعته الكبرى ، فهو انما يلقى بتلك الواجهات من استقلال زائف ، تخديرا للشعوب عن مواصلة كفاحها ، ومنعا لفئاتها الاجتماعية التى نفر بينها فى الماضى من أن تلتحم الى مستوى الوحدة القومية الحقة ، ثم تسترا خلف أجهزة ادارية أو عسكرية عميلة حفاظا على مصالحه الاحتكارية المتمكنة من اقتصاديات تلك البلاد .

واذا بالفرصة تواتيه مؤخرا اذ يتشقق المعسكر الشيوعى هو الآخر « الى شرق وغرب » بينمايكون الاستعمار قد نجح الى حد ما فى التسوية بين تضارب مصالحه ويعود الى سياسة الضغط العنيف دون مواربة ، بل والى سياسة القوة السافرة والى استغلال المتناقضات داخل شعوب العالم الثالث ، سلسلة متصلة من انقلابات وخاصة فى أفريقيا ، أو مخططات لتكتلات رجعية ترمى الى تفتيت الاجنحة وتطويق القلب كما هو حاله بالنسبة لحلف اسلامى مزعوم ، الدين الحنيف منه براء .

هل الصورة التى قدمت يا ترى قاتمة معتمة ؟ قد تكون ، فانما أردت الى ابراز المصاعب والاخطار التى تتهدد شعوب العالم الثالث بعد أن كثر الحديث عن حتمية التاريخ ، وكأنما فجر الخلاص سوف يشرق عليها وان أخلدت الى التواكل والانتظار المريض .

انما حتمية التاريخ فى انتظارنا ، اذا سعت شعوب العالم الثالث فى جد الى تحرير المواطن والى تحرير الوطن ، فى اطار كل منها ، بالقضاء على الاستعمار وسيطرته الغاشمة بكل الطاقات والوسائل ، واذا تعاونت وتآزرت فيما بينها بكل اخلاص ، واذا كان الاستعمار يخطط لاستمرار سيطرته على نطاق عالمى ، فان محاربته تقتضى من شعوب العالم الثالث التضافر على أساس من تخطيط شامل ، فتمضى بوعى متزايد متعمقة فى فهم امكانياتها المادية والروحية ، تجمعها فى اطار من اشتراكية واعية منبثقة من واقعها ، مذيبة الفوارق بين طبقاتها الى وحدة من عمل ثورى متصل ، تلتقى به مع شقيقاتها فى تعاون واضح المعالم وثيق الحلقات .

أردت اذن أن أبين ان الطريق أمامنا شاق طويل ، وانه لا يكفينا أن تقف الشعوب الى جانب بعضها البعض بآمالها وأحلامها ، وانما نحن فى حاجة الى سواعدها أيضا ، ثم أعود وأقول ان حتمية التاريخ ليست شمسا تدور فى فلك مرسوم وان مآلها الى اشراق ، وانما هى فى انتظارنا حتما الى حيث ندور بعالمنا على فلك من صنعنا ، وان الفجر لقريب لمن يجد ويسعى ..

حول المؤتمر الثالث والعشرين
للحزب الشيوعي السوفييتي

للمرة الاولى فى تاريخ مؤتمرات الحزب الشيوعى السوفييتى توجه الدعوة الى هيئات غير شيوعية كالجبهـــات والاحـــزاب والتنظيمات السياسية التى اتخذت من الاشتراكية مبدأ ومنهاجا ، وأبرزها الاتحـاد الاشتراكى العربى الذى يسعى بفكر مفتوح الى تلك المرحلة من مراحل التجربة السوفيتية ، يسعى اليها مزودا باصالة تضرب بجذورها الى أغوار الماضى السحيق ، هى اصالة الشعب المصرى صـانع الحضارات على مر الدهور .

وجاء الى المؤتمر أيضا ممثلون عن المنظمات التى نذرت نفسها لتحرير بلادها من استعمار جاثم فوق أراضـيها ، ممعن فى التنكيل بالارواح البشرية واهدار القيم الانسانية ، وأبرزها جبهة تحرير فيتنام الجنوبية التى اهتزت مشاعر العالم لقصص كفاحها البطولى حتى رجت الارض رجا ، بل كادت أن تميد دعائم « البيت الابيض » نفسه فى واشنطن ، اذ يسرى السخط بين اعداد متزايدة العدد دوما من فئات الشعب الامريكى نفسه ..

وكما حدث فى المؤتمرات السابقة جميعا ، تقاطر على موسكو ، من ارجاء الاتحاد السوفيتى وأطرافه المترامية الى ما خلف جبال الاورال ، ممثلو الحزب الشيوعى السوفيتى ، بقومياتهم المتعددة ، ثم من عواصم العالم وفود الاحزاب الشيوعية يتجمعون فى تلك القاعة الفسيحة فتكتظ بهم مقاعدها ، وهى آلاف ستة أو تزيد وترتفع أصواتهم بشـــعارات الماركسية اللينينية ، بينما يطل عليهم وقد تصدر القاعة وجه الزعيم لينين ، بقسمـات من عزم وتصـميم وقد اختلجت بوهج من حمرة قانية من خلال أضواء ساطعة تكاد تخطف الابصار .

ولكنه فى جوهره ليس كأى من المؤتمرات الســابقة فقـد تخلفت عنه وفود شيوعية لم يسبق لها أن تخلفت ، وأبرزها الوفد الصينى ، فهو ليس مجرد وفد واحد من بين عشرات أخـــر ، وانما وفد شعب يبلغ تعداده السبعمائة مليون ، أى ربع سكان العـــالم ، ثم هو وفد دولة صاعدة الى زمرة القوى العالمية الكبرى ، سوف تصبح قادرة عما قريب أن تتصدى لاى من الدولتين الذريتين الكبيرتين ، فهو وفد له ثقله المادى حيثما تكون المقاييس مادية ، وله أيضا ثقله المعنوى اذ يمثل اتجاهات عقائدية لها وزنها ، وخاصة حيثما هناك معارك تخوضها شعوب فى سبيل

التحرر ، وان كانت الصين قد اخفقت حتى اللحظة فى أن توائم بين النظرية والتطبيق فى مجالات اتصالاتها بالشعوب وعلاقاتها بزملاءالكفاح لاسباب عدة ، عميقة الجذور ، ليس هذا مجال النظر فيها والا خرجنا عن جادة موضوعنا .

وقد وفق الحزب الشيوعى السوفيتى أيما توفيق اذ الح فى تقرير لجنته المركزية الذى القاه « ليونيد بريجنيف » ، الى الخلاف الصينى السوفيتى فى عبارات هادئة متزنة ، وعرض الى أسلوب ارتآه الوحيد كفيلا بتضييق شقة الخلاف عن طريق لقاء يتم فى أى من موسكو او بكين بين أقطاب الحزبين الكبيرين ، هذا عن الاشارة المباشرة ، اذ لم يفته فى مكان آخر التعريض بموقف الصين تلميحا حين ندد «بالانحرافات سواء اتجهت الى اليمين أواليسارفترتبط بمظاهر النعرة القومية أو محاولات السيطرة » ، « فالانحرافات الى اليسار » و « محاولات السيطرة » كلمات أصبح لها فى لغة التخاطب بين الجناح الاكبر من الماركسية اللينينية مفهوم قد لصق بتصرفات المسئولين الصينيين .

واذا كان « كدار » ، سكرتير أول الحزب الشيوعى المجرى ، لم يتورع عن تعنيف الصين اشد التعنيف مع الحرص — كما هى عادة الشيوعيين فى مثل هذه الحالات — على عدم التصريح باسمها ، اذ ندد «بالانقساميين الذين يدعون الماركسية اللينينية بينما يحاولون الهاب المشاعر ضد السوفييت » ، ثم يقرر « ان معيار الروح الدولية هو مدى اخلاصها للاتحاد السوفيتى » ويعنى بها طبعا «دولية الحركة الشيوعية » ، فان « كدار » انما ساعد فى أن يضفى بايحاء من مقارنة الى عنفه ، مزيدا من نصاعة على الحزب السوفيتى وموقفه الهادىء من الخلاف .

وهذه ظاهرة تميز بها هذا المؤتمر عن الثلاثة الأخر التى انعقدت خلال حكم « خروشوف » ، والذى تطور خلالها الخلاف الصينى السوفييتى حتى كاد أن يجاوز المرحلة التى ليس بعدها مآب ، فلقد انطلقت شرارته الاولى فى المؤتمر العشرين فى فبراير عام ١٩٥٧ ، حين قدم خروشوف تقريره السرى ضد ستالين ، وليس هذا طبعا كماسبق وذكرت مجال تقصى جذور الخلاف الصينى السوفيتى ، والا لتساءلنا عن الاسباب التى دعت الصين الى التشبث بهذا الموقف من ستالين كمنطلق للخلاف ، فى حين أن الحزب الشيوعى الصينى لم يضره كما أضاره ستالين بالذات ، وخاصة خلال السنوات العصيبة التى أدت الى « المسيرة الكبرى » ، وانما الذى يعنينا أن هذا التقرير والذى اعتبر من بعد الشرارة الاولى ، كان تقريرا سريا لم يتسرب عنه وقتئذ الى خارج قاعة المؤتمر « حس أو خبر » فلما احتدم النقاش بين الجانبين وظهرت بوادر التشقق والخلاف بينهما ، ظلت هذه التصادمات ، مثلها مثل التقرير الذى اثارها ، حبيسة القاعة وعتها الآذان ولم تلكها الالسن ، وحصرت من بعد ردود الفعل الناتجة عنها فى حدود ضيقة حتى أن العالم الخارجى حين بدأ يحس بها لم يكد يحفل ، اعتقادا منه بأنها لعبة يمارسها حليفان لصيقان ، لعل أن يكسبا من ورائها شيئا لو أن خدع بها البعض.

وفى اعتقادى ان خروشوف كان يود لو اتخذ من المؤتمر التالى منبرا لهجوم جديد على الصين ، الا أن الظروف لم تسعفه لاسباب أخر ، ربما تعرضنا لها اذا اتسع المجال ، ولكن ما أن واتته الفرصة فى أكتوبر عام ١٩٦١ ، حين انعقد المؤتمر الثانى والعشرون ، حتى انطلق « ينشرغسيله القذر » على مشهد من الملأ ، كما يقول الصينيون ، فردد اتهاماته للحكم الستالينى ثم تطاول على البانيا ، وحدث كل ذلك علنا وليس من خلال تقرير مكتوم ، فانسحب شوان لاى من المؤتمر ، ولم يفته قبل مغادرته لموسكو ، أن يحج بتحية لها مغزاها الى قبر ستالين .

برز اذن فى هذا المؤتمر ، الثالث والعشرين ، أسلوب جديد فى مواجهة الخلاف السوفيتى الصينى ، أو فى « معالجة الانحراف الصينى » ، اذا أردنا التعبير بصدق عن مشاعر جمهرة المؤتمرين ، واقول جمهرتهم فقد كانت هناك قلة ، ولكنها قلة يعتد بها ، تملى عليها مصالحها ، أو ربما حرصها على وحدة الصف الا تشتط فى الحكم على جانب دون آخر ،

فهناك فى المكان الاول الحزب الشيوعى لفيتنام الشمالية ، وجبهة تحرير فيتنام الجنوبية ، اذ يخوض الشعب الفيتنامى معركة البقاء أو الفناء مع جحافل الاستعمار الامريكى ، المنبثق من تحالف الراسمالية العاتية مع البنتاجون ، معقل « انكشارية » العصر الحديث ، تخطط لهما فى مواجهة أى احتمالات ديمقراطية أمريكية ، أجهزة المخابرات ، دولةداخل الدولة ، بل فوقهـا ، تصرفاتها تفرض الامر الواقع على السلطة التنفيذية وسراديبها الفكرية والتخطيطية والتمويلية بمنأى عن متناول السلطة التشريعية ..

فيتنام بشقيها اذ تخوض تلك المعارك الضارية ، تشعر انها فى حاجة لكل عون ، تتلمسه أينما يكون . وفى المقام الاول عند جانبى النزاع داخل المعسكر الشيوعى ، ليس لها أن تفاضل بينهما ..

وهناك أيضا الحزب الشيوعى الرومانى ، وربما كان أقرب الاحزاب المؤتمرة فى موقفه الى ما كان ينادى به تولياتى الزعيم الايطالى الراحل بل أقرب اليه من الحزب الايطالى نفسه ، حفاظا على وحدة الحـــركة الشيوعية والعمالية أمام تنمر القوى الاســـتعمارية ، وقد حفزها الى العدوان الخلاف الصينى السوفيتى أولا ، ثم انجذاب القسط الاكبر من جهود القوى المناهضة للاستعمار الى مجالات هذا التنازع فتتبدد فيه وتهن ..

لم يتميز اذن هذا المؤتمر عن سابقه باختـــلاف الاسلوب فى معالجة الخلاف الصينى السوفيتى وحسب كما سبق وذكرت ، وانما سجل فى اعتقادىتحولا خطيرا عن سياسة خروشـــوف التى كانت تدفع بهذا الخلاف دفعا الى ذروة من تصدع .

فما هى الاسباب التى كانت تحمل خروشوف على هذا ، وهل كانت أسـبابا منبثقة من واقع داخلى ، فلها بالتالى تأثيرها على ســياسته الخارجية أم أنها كانت خارجية بحتة ، وانى لحريص على ألا أحيـد بالموضوع عن جادته ، ولكنى أرى لزاما أن نعود الى الماضى بعض الشىء

الى ذلك القدر — فلا أتعداه — الذي يسمح لنا بتفهم تطورات هذا المؤتمر الذي نحن بصدده ..

تداخلت التطورات التاريخية للحركة الشيوعية من جهة والاتحاد السوفييتي من جهة أخرى حتى كادت أن تلتحم ، فقد ظهرت الماركسية في المناخ الفكري لاوربا الغربية بمجتمعاتها الرأسمالية المتطورة صناعيا وقواها العمالية المتفتحة الوعي ، المتزايدة عددا ، حتى اذا تفجرت الثورة في روسيا القيصرية ، واقبل زعيمها « لينين » يواجه بالنظرية واقعا متخلفا لم تعمل له الماركسية حسابا ، كان طبيعيا أن يمضي في عمله وهو دائم التلفت الى الغرب، مترقبا العون .. بل ان تنجرف الثورة الروسية قدما الى الامام في تيار من ثورات ماركسية عارمة تجتاح دول أوربا المتقدمة صناعيا ، حين تصدق النبوءة ، وكان الايمان راسخا بأنها لا بد أن تصدق ..

ثم وضح واقع مرير من الاحتمالات قريبة لما يترقبون ، والا مفر من تركيز الجهود حيثما تفتحت الفرصة ، وان أقفرت بالامكانيات ، وان التلفت مضيعة للوقت وتشتيت للجهود ، واذا كان هذا الواقع قد وضح للبعض فقد كانوا قلة ولكنهم بفضل من تفكير واقعي تمكنوا من أن يفرضوا اتجاهاتهم فرضا وأن ينحوا زملاءهم القدامى من مراكز السلطة ، ثم انفرد من بينهم ستالين ، بدكتاتوريته على الاتحاد السوفيتي ، يدفع به الايمان بضرورة التحول الاشتراكي أمام الصعوبات الجبارة التي تواجهه وتحف به ، الى تعصب فاق في ذروته « الكلفينية » . البروتستانتية حين تحصنت خلف أسوارها الحديدية داخل قلعتها « جنيف » ، فتصمد للنفوذ الكاثوليكي المتلاطم من حولها .

واذ تمسكت الستالينية بأهداف التحول الاشتراكي كما تطلعت اليه الماركسية ثم اللينينية ، الا أنها في سبيل تنفيذ تلك الاهداف أهدرت القيم الديموقراطية التي انطوت عليها وارتدت كلية الى الاساليب الارهابية التي لجأ اليها بطرس الاكبر ، فيتحول بروسيا عن « أسيويتها البربرية » الى ما اعتقده ازدهار « التحضر الاوربي » ، وهكذا أصبحت أداة ستالين ليس الحزب الشيوعي المرتكز على قواعد شعبية واسعة الانتشار ، وانما مكتب سياسي اتوقراطي النزعة تدعمه تنظيمات بوليسية ، هي التي سمح لها بأن تنبث الى أدق تلافيف القاعدة الشعبية فتفرض بوسائلها الخاصة التطبيقات التي يراها المكتب السياسي المعبرة دون غيرها عن النصوص الماركسية .

وعندما ذهب ستالين ، خلصت أجهزة الحكم والسيطرة التي كان قد أرساها الى وجود ، من تلك القبضة الحديدية التي كانت تمسك بأطرافها جميعا فتنسق بينها وتوجهها وجهة واحدة بصرامة لا تعرف الرحمة، ثم أن الاوضاع في الاتحاد السوفييتي كانت قد تحولت تحولا جذريا عما كانت عليه حين لجأ ستالين الى وسائل السيطرة تلك ، التي ابتدع لها فلسفة توائم واقع حال مضي زمانه ، فقد أصبح الاتحاد السوفييتي قوة صناعية كبرى ، قوامها طبقة عمالية وفيرة العدد تقودها اداريا وفنيا فئة ذات مستوى ثقافي تكنيكي رفيع ، متمركزة في المعاقل الصناعية الكبرى ، تحيط

بها مناطق زراعية لم تنهض الى مستويات من تقدم يتوازى معها أو يستحق أن يقارن بها ، بل كابد القائمون عليها أشد أنواع العسف ، ثم تفتحت أذهانهم أولئك وهؤلاء ، زراع وفنيين وعمال ، الى مستويات المعيشة خارج الاتحاد السوفييتي وقد تهاوت الحواجز بين بلادهم وبين أجزاء من العالم الخارجي خلال سنين الحرب وما بعدها ، حين رابط من جنلوا منهم في عواصم بلاد أوربا المغلوبة على أمرها ، وأكثرها صناعية متقدمة احتوت أراضيها أيضا مناطق زراعية متطورة .

بدأ الصراع على السلطة عند وفاة ستالين ، ولاح أن المعركة سوف تنحصر بين جبهات ثلاث ، أخطرها جبهة بريا ومن خلفه أجهزته البوليسية الرهيبة . وان كان ستالين قد أوهن منها خوفا من تزايد نفوذ بريا أو ربما تمهيدا للتخلص منه ، ثم جبهة مولوتوف وكجانوفتش ، رفاق ستالين القدامى وأعمدة المكتب السياسي ، ومن ورائهما الاجهزة الرئاسية في الحزب ثم الادارية في الوزارات غير الفنية ، واخيرا جبهة مالينكوف ، ومن خلفه الاجهزة الادارية الفنية المتماسكة بيروقراطيا والتي قامت عليها المنجزات الصناعية الكبرى ، يعاونه خروشوف على رأس اشتات من تنظيمات حزبية اقليمية تضعضعت الى خمول ومذلة خلال حكم ستالين الارهابي الطويل .

وهنا برزت مقدرة خروشوف التكتيكية الفريدة وقدرته العجيبة على خلخلة القوى المعبأة لمعركة السيطرة وقلب موازينها مرة بعد أخرى ، فاذا به يتحرك وكأنه يعمل لحساب مالنكوف متضافرا مع كتلة مولوتوف فيستنفر قوة لم تكن في الحسبان ، بل قوة طالما بطش بها الحزب الشيوعي في كل زمان ومكان فلا تستأثر بسلطة سياسية ، ولكنه اقنع زملاءه انه اجراء مرحلي لامفر من الالتجاء اليه أمام جبروت النفوذ البوليسي ، والا خشية من احتمالات تطور « بونابرتي » ، فتم التخلص من بريا داخل الكرملين حين نصب له خروشوف كمينا من بعض قواد الجيش الكبار وهم الذين عانوا ماعانوا من ارهاب الجهاز البوليسي طوال حكم ستالين .

ثم يتحول خروشوف عن ربيبه مالنكوف ، فيستغل اتجاهاته في التوسع في انتاج السلع الاستهلاكية على حساب الصناعات الثقيلة ، فيثير مخاوف مولوتوف من تلك الاتجاهات «البورجوازية» ويثير حفيظة الجيش عليه.

واخيرا يخلو له الجو في مواجهة مولوتوف ولكنه يكاد أن يخسر المعركة في يونيو ١٩٥٧ حين صوتت الاغلبية ضده داخل البرزديوم (المكتب السياسي القديم) ، وكان قد كشف عن وجهه بمهاجمة الستالينية في المؤتمر السياسي كما سبق وذكرت ، كما تزايد أعداؤه اذ انضم اليهم مالنكوف الذي غدر به ، وما يزال وقتئذ عضوا في البرزديوم ، ولكن خروشوف كان قد أعد للامر عدته ، اذ أعاد تنظيم لجان الحزب الاقليمية بأنصاره ، وهم عماد اللجنة المركزية ، التي لها حق تعيين سكرتيري الحزب أو عزلهم ، كما تنص اللوائح ، صحيح أنها لوائح قد صارت الى نص مهمل خلال الحكم الستاليني ، وان أعداء خروشوف في البرزديوم كان بوسعهم الاعتماد على العرف المتبع فيرفضون دعوة اللجنة المركزية فيقبلونه من منصبه كسكرتير أول للحزب ، ولكنهم اذ شرعوا في ذلك ، فوجئوا بتجمهر عدد كبير من

أعضاء اللجنة المركزية خارج قاعة اجتماعات البرزديوم ، ومن بينهم — وهنا تمثلت خطورة الموقف — قوادالجيش من أعضاء تلك اللجنة ، يلحون فى صخب على البرزديوم ألا يكتم عنهم مجريات الامور ، التى من حقهم النظر فيها والتصويت عليها .

وباجتماع اللجنة المركزية تم لخروشوف القضاء على منافسيه فى السلطة ، ثم تمضى الايام وتتوطد دعائم سيطرته ، وينحو الى فردية فى الحكم ، لم تنزع ابدا الى ارهاب ستالينى ، يضفى به على نفسه هالة من « تأليه » فيكاد يعبد ، وانما تطورت الى فردية مطلقة ، تتصدى للمشاكل الموضوعية بغرور من قرارات «ذاتية» طارئة تتحصن ضد كل مراجعة خلف سهام من سخرية لاذعة ، تحيل أترابه الى أقزام ، فلا يجازفون بابداء رأى معارض خشية ألا يعتد به أحد ، فيصيرون الى عزلة تعجل بالقضاء عليهم .

وانها لشخصية عجيبة فريدة تروى لنا المؤتمرات الثلاثة السابقة على هذا المؤتمر الثالث والعشرين قصة صولاته وجولاته وحركات التفافه الخاطفة الكاسحة ، ولكنها تبين لنا أيضا كيف انها نفخت فى ثقته بنفسه فتهاوت من حولها أسباب الحذر ، فتطلع الى أهداف تقصر عنها امكانياته فقد أغضب الكثيرين كما أنه فاجأ المرة تلو المرة حلفاء كل معركة خاضها بمعارك جديدة ينقلب فيها عليهم فى صحبة حلفاء جدد ، حتى ضاقت امامه سبل المناورة فلا يؤازره حليف جديد الا وهو منه متوجس حذر ، ولا يعطيه الا بقدر ، خشية غدر لاحق .

فقد أطاح بمن كانوا ينافسونه مقاليد الحكم اعتمادا على اطارات متجددة فى لجان الحزب وبتأييد من الجيش ، فقوض سلطان البرزديوم المتوارث عن ستالين بسلطان مستمد من لجنة مركزية ، قد أصبح للجيش فيها بعض نفوذ سياسى ، وكسر السيطرة البيروقراطية للاجهزة المركزية الفنية ليدعم بها مجالس اقتصادية اقليمية لامركزية متداخلة مع لجان الحزب ، ورفع المارشال جوكف الى أعلى المراتب سياسيا وعسكريا ثم نحاه وكأنه لم يكن ، فقد كان فى حاجة الى استقطاب تأييد الجيش سياسيا حين أعوزه التفوق السياسى ، ثم هبط بالجيش اداة طيعة للحزب صارت اليه مقاليد الحزب .

وأخيرا حين هل المؤتمر الثانى والعشرون مؤتمر القطيعة العلنية أو الرسمية مع الصين — عاود الهجوم على الستالينية وعلى مجموعة «أعداء الحزب» ، وهو الاسم الذى اطلقه على أنصار مولوتوف وكجانوفتش ، ثم على التزمت ، وكان يمهد فيما أعتقد ، وان بدا أنى اشتط ، الى احكام سيطرته الذاتية على الاتحاد السوفييتى ، بتفتيت الاطارات السياسية للحزب ثم اعادة تكوينها فى صورة اطارات تكنيكية خاوية من المضمون السياسى موحد الفكر ، القادر يوما ما أن يسائله فيما سوف يحلق اليه من بدع أو ما سوف يستحضر من فكريات تبريرا لتصرفاته الذاتية داخليا وخارجيا فى محيط السياسة الدولية .

وربما التمست الدلائل على ما اقدم فى محاولات خروشوف لفصل

الصناعيين عن الزراعيين في لجان الحزب ، وانه لاجراء ينطوى ، اذا ما ارسيت له القواعد فثبتت ، على احتمــــالات من تفتت متـزايد ، فالزراعة وتخصصاتها انواع ، والصناعة انواع بل اضعاف انواع ، وتزايد اعتماده على الحاسيب والاقرباء في المراكز الحساسـة ، بل وان يكلف هؤلاء ، بتعدى اختصاصـات تلك المراكز الى ماهو أعلى ، كما حدث حين فوض زوج ابنته باجراء محادثات مع المانيا الغربية ، كما كان مقدرا «لادجوبى» أن يفعل لولا أن عجل بتنحية خروشوف .

وأخيرا وليس آخرا فان امعانه في سياسة دفع الصـين الى طريق اللاعودة ــ الامر الذى كان يهـدد بانقسام الحركه الشيوعية وتفتيتها ــ أوحت بانما هى انعكاس صـادق لسياسته الداخليـة في تفتيت الحزب فكرية ولذا فان التأييـد شبه الشامل الذى حظى به الحزب الشيوعى السوفييتى في مؤتمره الثالث والعشرين من الاحزاب الشيوعية جميعا ، انما يعود أسـاسا لاتباعه سياسة الحرص على وحدة الحركة الشيوعية الدولية ، وفي اعتقادى ان استجابة تلك الاحزاب لموقف الحزب الشيوعى السوفييتى ليست دليـلا على انها تؤيد الحزب كلية من حيث موقفه من الخلاف أو أنها ترفض وجهة النظر الصينية تماما ، وانما دليل على انها ترفض السياسة التى تؤدى الى الانقسام وتريد ان تأخذ بضرورة مجابهة الخلافات بالحوار المستمر في اطار من وحدة ، كما سبق لتولياتى أن اقترح في خطابه الاخير لخروشوف .

وفي ضوء ماتقدم يمكننى أن أقول ان المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى هو مؤتمر « تصفية الخروشوفية » : ولكنى اجانب الحقيقة اذا أصررت على أنه لم يكن الا ذاك ، وانما أقبل المؤتمر على تصفية الخروشوفية تمهيدا لانطلاق جديد ، انطلاق الى أين ؟ وكيف ؟ .

ان الحاضر المتحفز للانطلاق في حاجة جديدة ، الا انه يفقد من فعاليته وتضيع شخصيته اذا ما حاول أن يقطع وشائجه مع الماضى جميعا .

فهل سعى الحزب الشيوعى السوفييتى الى احياء الستالينية كما حلا للبعض أن يتصوروا فيتكهنوا ، كلا بل سادت المؤتمر روح من أناة تتفحص مشاكل الاقتصاد والسياسة في موضوعية هادئة لايعتورها قلق أو فزق ، كما كان حريا أن تفعل لو أن شبح ستالين الرهيب رفرف على القاعة أو حام من حولها ، وانما كانت المناقشات تهش طيف خروشوف بتقلباته ، فيشف الجو وتشـد الانظار عبر الاحقـاب ، عبر الخروشوفيـة ثم الستالينية الى وجه لينين وقد تصـدر القاعة ، لينين وحـده ، وليس بصحبة ماركس وانجلز كما في اللافتات التى تزدان بها ميادين موسكو وشوارعها حين تكون احتفالات ، لينـين وحده لايصاحبـه ماركس كما في شعارات الاحزاب الشيوعية ، لينين رجل الفكر والعمل ، ورث النظرية الفكرية التى انبثقت في المناخ الصناعى لاوربا الغربية ، يؤمن بها ايمانا لاحد له ، ولكنه يرى انها انما ابتدعت لصـالح الواقع البشرى أينما يكون ، فاقدم يطوعها لخدمة هؤلاء الذين كانوا يعيشون هذا الواقع على أرض الاتحاد السوفييتى .

الجديد فى المؤتمر اذن هو الانقلاب على الخروشوفية التى حاولت الاتجاه بالاتحاد السوفييتى كلية الى سياسة من تعايش سلمى شبه مطلق، ظاهرة التنافس الوحيد فيه هى مغالبة العالم الرأسمالى ، والولايات المتحدة بخاصة ، فى مجال الارتفاع بمستويات المعيشة ، فتتركز الجهود جميعا نحو الاسراع الى زيادة الانتاج ، بأى شكل وبأى وسيلة ، كما يتضح لنا من الاهداف الطموح التى افترضتها الخطة السبعية حين عرضت على المؤتمر الحادى والعشرين والتى هبط بها المؤتمر الثالث والعشرون الى أرقام معقولة حين عرض الخطة الخمسية الجديدة ، وكان قد بلغ من تلهف خروشوف الى تحقيق آماله أن دفع بالمشاريع تلو المشاريع الى مجال التنفيذ ، كلما لاح له فى أحدها بريق من احتمالات كاسحة ، فلا يتأنى ، فيستشير الخبراء عن مكانة المشروع فى الخطة بعامة وعن تأثيراته المحتملة فى الميادين الاخرى ، بل ينطلق اعتباطا ويضيق بمن يحاول مراجعته حتى لاتنحرف أهداف الانتاج بأساليب التنفيذ بعيدا عن مستلزمات تطور العلاقات الاجتماعية كما رسمتها النظريات الاشتراكية .

الجديد فى المؤتمر هو القضاء على تيار الخروشوفية اذ اتجهت الى ارساء قواعد الدولة التكنوقراطية ، خدمة لاهداف رفع مستويات الانتاج بأى وسيلة ، وعود الى التيار اللينينى الذى هو الارتفاع بالواقع فى سبيل تطوير المجتمع ، الخروشوفية كانت تستهدف مجتمع الكفاية فيباهى به العالم أجمع وحكام الولايات المتحدة بخاصة ، أما اللينينية فهى تعنى بالعدل قبل الكفاية ، نموذجا حيا لما يجب أن تكون عليه العلاقات الاجتماعية بين مختلف طوائف الشعب فتجتذب الى التجربة شعوب العالم جميعا .

فاذا كان المؤتمر قد اتجه فى ظاهره الى انطلاق علمى مدروس للانتاج على المستوى الاقليمى ، مع الربط التخطيطى على المستوى المركزى الا أنه فى «جوانيته» اتجه الى اطلاق طاقات المجهود العلمى مع التركيز على الربط العقائدى المعنوى .

فمن ناحية مزيد من سلطات للسوفييتيات الاقليمية ، فى سبيل تحقيق أهداف الانتاج والتصدى للمشاكل الادارية الناجمة عن احتكاك الواقع بقيود التخطيط أو عن قصور امكانيات التمويل ، ثم حث على تعميق الديموقراطية على كافة المستويات فتتعدد اللقاءات البناءة ، قوامها تشجيع النقد والنقد الذاتى .

وفى الناحية المقابلة ، بل بما يكفل التكامل مع ماتقدم ، تكثيف التربية العقائدية فى صفوف الشباب و الحث على التصدى لاية ظواهر بورجوازية طارئة (أهى التطلعات التكنوقراطية الطبقية التى تعهدها خروشوف دون أن يدرى ؟) ودفع الادباء والفنانين الى الالتصاق بالواقع الاشتراكى ثم التصدى بكل قوة للتيارات « اللاسياسية » ، أى جميع الاتجاهات التى تحاول التحلل من المضمون السياسى أو أن تهمله ، ومما له دلالته التعديلات الجديدة للوائح الحزب التى تتشدد فى قبول انضمام الاعضاء الجدد وتدقق فى عملية تكوين الكوادر ، وتحكم حول تصرفات الاعضاء حلقات الضوابط .

وماذا اذن عن هؤلاء الذين تصدوا لاستمرار الحملة ضد الستالينية ؟ فقد طالب البعض بوقفها فعلا ، ولكنها لم تهدف قط العودة الى الوراء، وانما قالوا ماقالوا فى اطار من تصفية للخروشوفية التى لو قدر لها أن تستمر لوصل بها الامر الى التنديد بكل شيء وأى شيء، وكأنما كانت سنوات حكم ستالين جميعا وبالا من تعسف أو فراغا من بناء ، حرى بالشعوب السوفيتية أن تمحوهامن تاريخهاكلية ، وربما سعى خروشوف، سواء درى بذلك أم لم يدر ، الى تأكيد مناخ من انقطاع حضارى فى مسيره العقيدة الشيوعية فيخلو له الجو لتشييد « طوباوية » التكنوقراطية ، ولكنها محاولات آبت الى فشل حين هوت « الذاتية الاعتباطية » ، وهى لغة المؤتمر الثالث والعشرين حين يعرض لعصر خروشوف .

فهل نحن امام « لينينية » جديدة أم انها فترة انتقال ؟ انتقال الى ماذا والى أين ؟ . ولكن لاعلينا انما الذى يعنينا اننا امام مرحلة جديدة اعتقد أن سوف تمتد الى حين قد يطول ، من عمل دائب فى جو من طمأنينة واستقرار .

□□

الثورة والميثاق والمجتمع

في ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحركت وحدات من الجيش المصرى ، فتم لها عند الفجر الاستيلاء على مقاليد الامور فيه ..

حدث صار نبأ حين طير به ، فأبرز على صفحات الجرائد فى جميع أنحاء العالم ، مثله مثل عشرات سابقة عليه ، وعشرات سوف تترى من بلاد اخر ، ثم يؤرخ به وبها من بعد استبدال نظام بنظام ، أو ارتقاء طبقة الى ناصية السلطة على أنقاض أخرى ، أو قيام دكتاتورية عسكرية جديدة مآلها الى انهيار حين تهن قبضتها ، أو أن تتقوض اذا ما قسمتها الاطماع الى أطراف متنافرة متناصرة .

ولكن أحداث مصر تتابعت من بعد مستهدفة وجهات لم تكن تخطر على بال المراقبين الذين نصبوا أنفسهم خبراء محللين ، قادرين ، وحدهم على استقراء بواطن الامور ، ولست أعنى بها تلك الاحداث التى كان لها رنين وطنين كتنازل فاروق عن العرش ، أو معركة تصفية الاحزاب أو حتى اعلان الجمهورية ، فانها على أهميتها البالغة لم تكن الا مقدمات لاهداف بعيدة لا تكاد تبين أو أطارات لتغيرات عميقة لم تحظ بوادرها بما كانت تستحق من اهتمام .

وربما كان أبرز تلك التغيرات ، وقد اجتذب فعلا بعض التفات وان لم يعن به خبراء الشئون الدولية كثيرا حينذاك ، قانون الاصلاح الزراعى ، الذى صار له من بعد حين تكشفت الاتجاهات الحقيقية للثورة المصرية ، صدى وأى صدى ، حيثما الشعوب تئن تحت وطأة اقطاع .

أقول الثورة المصرية ، فانها لم تكن حركة أو انقلابا ، كما تصور العالم حين طالعته الصحف بنبئها صباح ذلك اليوم من شهر يوليو ، ولو أن النظرة كانت فاحصة لما كان ذاك التصور الخاطىء ولاتضح أن الوحدات التى تحركت فى تلك الليلة الخالدة فاستولت على مقاليد الامور فيه ، اختارت للجيش « المكان الذى لا مكان له غيره وهو جانب النضال الشعبى » (١) فهى اذن ثورة بكل معانى الكلمة .

ولكن الظروف لم تكن ميسرة أمام العالم الخارجى فتتهيأ له فرص النظرة الفاحصة ، ولم العناء ؟ اذ لم يدر بخلد أى من دهاة السياسة

---

(١) الميثاق الباب الرابع

حينذاك أن أحداث مصر سوف تتطور الى فاعلية تزلزل صورة العالم كما حلا لهم أن يحددوا له معالمه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ثم ان أحداث مصر وان صاحبتها ظواهر أكيدة من شعبية وتقدمية ، وهما السمتان المميزتان للعمل الثورى الصادق (١) ، الا انها لم تكن تملك من دليل عمل ، أى عمل ، سوى مبادىء ستة ، ترفعها فعلا وتصر عليها بينما هى تفتقر الى التنظيم السياسى القادر على مواجهة مشاكل المعركة بل والى النظرة الكاملة اللازمة لكل تغيير ثورى (٢)

تلك مقاييس تقليدية تداعت أمام عاملين أساسيين كان لهما الفضل كل الفضل فى الانطلاق بأحداث مصر عبر التكهنات أو التصورات التى استخفت باحتمالاتها اذ عجزت عن الغوص الى أعماق دلالاتها ، أولهما أن طلائع الجيش التى خرجت من ثكناتها ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت ولاءها للنضال الشعبى وأصرت على ألا تكون الا أداته فى تحقيق الثورة الشاملة التى يتطلع اليها (٣) .

وثانيهما أن الشعب المصرى ، اذ تفجرت لديه فى تلك الليلة المجيدة طاقات التغيير الثورى تمثل له ، بصدق من رؤية ، طريقا ليس من غيره طريق ، فالتزم جادته ، بعناد من ارادة ، استمرارا « لنضال الانسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل ، طليقة من قيود الاستغلال والتخلف فى جميع صورها المادية والمعنوية » (٤) .

ومن خلال التفاعل الخلاق بين هذين العاملين الاساسيين ، بين الارادة الشعبية للتغيير الثورى وبين الطلائع الثورية التى لم تضع نفسها أداة لهذا التغيير فحسب ، وانما أحالت نفسها مستودعا لآمال الشعب ، ومنطلقا الى آفاق من تطلعات متجددة ابدا كلما اتسعت أمامها دوائر الانجازات ، راحت المبادىء الستة تتحرك على خريطة الواقع بالتجربة والممارسة نحو وضوح فكرى يرسم ملامح المجتمع الجديد ويفتح طريق الثورة الى أهدافها اللا متناهية (٥) ، فكان الميثاق .

ولكن الطريق الى الميثاق لم يكن سهلا ميسرا ، قامت دونه عقبات جمة وصعاب معضلة ، لم تتمكن ارادة التغيير الثورى من أن تتخطاها ، وقد اتخذت من طليعتها الثورية أداة سلحتها بتلك المبادىء الستة التى صحتها من مطالب النضال الشعبى واحتياجاته (٦) الا بفضل وعيها العميق بالتاريخ وأثره على الانسان المعاصر ثم ايماننا بقدرة هذا الانسان

---

(١) الميثاق الباب الرابع
(٢) الميثاق الباب الخامس
(٣) الميثاق الباب الاول
(٤) الميثاق الباب الرابع
(٥) الميثاق الباب الاول
(٦) الميثاق الباب الاول والرابع

بدوره على التأثير فى التـــاريخ ، وعى يعززه فكر مفتوح لكل التجارب الانسانية يأخذ منها ويعطيها ، لا يصدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد . وعى ثم فكر يدفع بهما ايمـــــان لا يتزعزع بالله وبرسله ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى الى الانسانية فى كل زمان ومكان (١) .

شقت الارادة الشعبية اذن طريقها الى الثورة الشاملة ، متعـــــددة الاتجاهات ، تشابكت معاركها وتداخلت مراحلها ، استهدفت حرية الوطن ، مواجهة الاستعمار الجاثم فوق أرضه الطاهرة ، واستهدفت تعبئة الامكانيات المادية والبشرية فى معركة الانتاج فى مواجهة التخلف ، ليس عن طريق تحقيق الممكن ، ولكن وصولا الى الامل (٢) ، جميع ما تقدم فى اطار من قيم انسانية خالدة ، جسدها الميثاق كما لم يستطع أبرع من تصدوا ، من قانونيين ، للدفاع عن حقوق الانسان والحفاظ عليها ، بما سطروه وما يسطرون فى صلب الدساتير الوطنية أو الوثائق « الاممية » .

واذ كان الميثاق يحكي لنا مسيرة الثورة المصرية منذ أن تفجـــرت فى يوليو عام ١٩٥٢ ؛ الا أنه فى المقام الاول يسلط أنواره الكاشـــفة على الاهداف الكبرى التى ما زلنا نتطلع اليها ، واننا اذ نرجع اليه ، فى عيده الرابع هذا ، انما نفعل لنشحذ من قوانا الذاتية تعبئة لانطلاقة كبـــرى جديدة ..

فقد سقط الاستعمار فوق أرضنا ولكنه ما زال متربصا من حولنـــا قابعا فى قصور الرجعية يتحين فرص الانقضاض علينا من جديد ، وسقط تحالف الاقطاع والرأسمالية المستغلة ، ولكن ما تزال له جيوب مستترة ، بل جحور يأوى اليهـــا ، فاذا اطمـأن الخلق من حوله ، سعى مرة أخرى ولدغ ..

وقام التحالف الجديد بين قوى الشعب العـــاملة بديلا شرعيا لذلك التحالف الذى سقط (٣) ، فقضى على الامتيازات الطبقية ، ولكنـــه اذ أزال أسباب التصادم بين فئات الشعب المختلفة الا أنه لم ينجح بعد فى القضاء على ما بينها من متناقضات عن طريق تذويب الفـوارق بينها ، وانما فتح المجال لامكانية حلها سلميا ، أى بوسائل العمل الديموقراطى (٤) ، فنحن من هذا الامر لم نزل فى بداية الطريق .

واقبلنا على معركة الانتاج ، مستهدفين القضاء على التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، وصولا ثوريا الى مجتمع الكفاية والعدل ، فواجهتنا معادلة صعبة ، من شعب ثلاث أولاها ضرورة التوسع فى اقامة هياكل الانتـــاج

---

(١) الميثاق الباب الاول
(٢) الميثاق الباب السادس
(٣) الميثاق الباب الخامس
(٤) الميثاق الباب الخامس

الرئيسية التى هى أساس الانطلاق من التخلف الذى كان ، الى التقدم الذى يتطلع اليه النضال الوطنى (١) ، ولكن دون اغفال المطالب الاستهلاكية لجماهير شعبنا والتى هى حقها الثابت ، تعويضا لها بعد طول حرمان ، والا أدى ذلك الى تعطيل امكانيات الوفاء بتطلعاتها المتسعة (٢) ، ثم شعبة ثالثة لا تقل عن سابقتيها أهمية ، وهى العمل على استمرار تزايد المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة (٣) .

ونجاحنا فى معركة الانتاج ، « والتى هى التحدى الحقيقى الذى يواجهنا مقياسا لقوانا الذاتية ، هو الذى سوف يحدد لنا مكانتنا تحت الشمس » (٤) ، وهذا النجاح لا يتوقف على مجرد اجراء التغيير الثورى فى أوضاع المجتمع القديم ، وانما على مدى قدرتنا فى الانتقال ثوريا بفلسفة العمل الوطنى من العموميات الشائعة المبهمة الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضاله اليومى بحركة المجتمع كله فيشده فى اتجاه التاريخ (٥) ، ولن يتأتى لنا ذلك الا اذا تصدينا للمعادلة الصعبة بشعبها الحيوية الثلاث فنوجد تنظيما ذا كفاية عالية ، قادرا على تعبئة القوى المنتجة ورفع كفايتها ماديا وفكريا فيربط بينها وبين عملية الانتاج (٦) .

منذ سنوات أربع ، قدم لنا قائدنا ميثاقنا الوطنى ، بل أقول ميثاق عملنا الوطنى كما يجب أن يكون عليه مفهوم العمل الوطنى ، ودار من حوله النقاش ، وخاصة امام مؤتمر القوى الشعبية ، وأقبلنا عليه ، جماعات وأفرادا ، نقرأه ونعيد قراءته ، ولكنى أعتقد اننا لم نع منه الا ما تراءى لنا فى ضوء من واقعنا كما كان عليه واقعنا حينذاك ، فقد أراد الميثاق أن يضع أمامنا صورة حية لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، صورة كانت بالضرورة مركزة اشد التركيز ، ولكنها غنية بايحاءات تغوص الى الاعماق اذ تحلق الى الافاق ، وتضرب الى الماضى السحيق بينما تستشف الرؤية الى المستقبل البعيد ، بل ، أقول بعيدا عن تحليقات الخيال وعودا الى الواقع الملموس ، ان الميثاق ، الذى هو دليل العمل على أرض الوطن ، أشبه ما يكون بأرض مصر ، لا يبوح لنا بكل اسراره ولا نفضى بما فى باطنه من ثروات فكرية الا بما يتناسب مع ما نبذله من جهدا (٧) .

فاذا تعثرنا أمام مشاكل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية ، واذا

---

(١) الميثاق الباب السابع
(٢) الميثاق الباب السابع
(٣) الميثاق الباب السادس
(٤) الميثاق الباب السابع
(٥) الميثاق الباب الثامن
(٦) الميثاق الباب السادس
(٧) الميثاق الباب السادس

جابهنا أخطارا ، داخلية كانت أم خارجية ، بل وإذا عرضت لنا تساؤلات فرعية طارئة فى أى ناحية من نواحى حياتنا على تعددها ، فاننا سوف ندهش ، أن نجد فى الميثاق ، اذ نعود اليه ، الردود على تساؤلاتنا ، واشارات الى الاتجاهات الكفيلة بحل مشاكلنا أو تلك التى تمكننا من التصدى لما يهدد أمننا وسلامتنا ، ثم نعجب كيف اننا لم ننتبه اليها من قبل فلا نتردى فى حيرة أو نتخبط بحثا عن حلول مشاكلنا .

فاذا نظرنا الى جرائم الاقطاع الاخيرة ، وجدنا اننا غفلنا عما جاء فى الميثاق ، حين حذرنا من أخطار الصراع الطبقى وأن الرجعية تريده ضاريا دمويا (١) ، فهى لا تزال تملك وسائل المقاومة ، فاذا انتزعت منها سلطة الدولة لجأت الى سلطة المال (٢) ، وكلنا نعرف ، وخاصة أهل الريف ، أنه لا تزال هناك رواسب من نفوذ تستند فى كثير من الاحيان ، مع الاسف الشديد ، الى رواسب من عقليات ادارية محلية ؛ أى أن الرجعية لا تزال تملك من المؤثرات المادية والفكرية ما قد يغريها بالتصدى للتيار الثورى الجارف (٣) .

والميثاق هنا لا يريدنا أن نرضى بالامر الواقع ، وانما يشير بوضوح الى خطة العمل الكفيلة بعلاج تلك الاوضاع ، علاجا جذريا شاملا ، فيوجه تحالف قوى الشعب العاملة الى اقامة الاتحاد الاشتراكى العربى سلطة ممثلة للشعب وحارسة لقيمه الديموقراطية السليمة (٤) .

ولكنها كغيرها من تطلعاتنا الكبرى ، ليست بالامر الهين ، فان مجرد التغيير الثورى فى أوضاع المجتمع القديم لا يحقق أحلام الجماهير انما هى الجهود المتواصلة فى هذا السبيل (٥) ، ولن يتحقق لنا ما نريده للاتحاد الاشتراكى العربى من فاعلية فى الريف ، الا اذا أسرعنا من جهة فى خلق ، داخل اطار الاتحاد الاشتراكى ، الجهاز السياسى القادر على تجنيد العناصر الصالحة للقيادة (٦) هناك ، ومضينا من جهة أخرى فى تطوير عملية الانتاج فى الريف ، فهى التى سوف تساعدنا على ايجاد القوى البشرية المنظمة التى تستطيع بدورها تغيير شكل الحياة فيه تغييرا ثوريا وحاسما (٧) .

وليس معنى هذا أن نقف مكتوفى الايدى أمام جرائم الاقطاع هناك ، وانما علينا اذ نقدم لشعبنا الحماية اللازمة ، فنضرب على أيدى من تسول له نفسه الاعتداء على آماله وحرماته ، أن نعى أن الحلول الجذرية

---

(١) الميثاق الباب الخامس
(٢) الميثاق الباب الخامس
(٣) الميثاق الباب السادس
(٤) الميثاق الباب الخامس
(٥) الميثاق الباب الثامن
(٦) الميثاق الباب الخامس
(٧) الميثاق الباب السابع

الشاملة هي تلك التي يقدمها لنا الميثاق ، فان أصواتا في الريف ترتفع وتقول ، والاحتمال كبير أن ما تقول هو الصـــواب ، ان كل جريمة اقطاعية تم الكشف عنها تقـــابلها عشرات اخفيت معالمها ، لا يتـــأتى لأجهزتنا الادارية في أوضاعها الحالية الكشف عنها جميعا أو أن تحول كلية دون وقوع غيرها ، بل ان تلك التي كشف عنها . كان بفعل أجهزة الاتحـاد الاشتراكي العربي على الرغم من أنها لم تصل بعد الى مستويات الفاعلية التي نرجوها لها على نطاق الجمهورية .

ثم أن مجتمعنا يؤمن ايضا بأن فاعلية جيشنا الوطني تكمن في قوتنا الاقتصادية والاجتماعية فهي القلب الذي يغذي اليد الضاربة بأسباب القوة والثبات ، ويمكننا من توجيه الضربات القاضية للعدو مهما طالت المعركة (١) .

معركة الانتاج لها اذن دورها الحاسم في التصدي لمؤامرات الاستعمار المتسترة من خلف أقنعة الرجعية .

وهذا الكلام يسوقنا الى الالتفات لما عرضت له الحكومة منذ شهور في مؤتمرات تناولت بعضا من مشاكل الانتاج التي نواجهها حاليا ، وهنا نجد اتجاهات الحلول كامنة في سطور الميثاق ، بل وربما لما عرضت لنا تلك المشـاكل لو أن التزم كل مواطن بأن يعود الى الميثـــاق حينا بعـــد حين ، لا يكتفي بترديد كلماته استعادة لما سبق أن وعاه ، وانما أن يقبل عليه محاولا استخلاص معان جديدة أفلت منه مغزاها اذ لم يكن بعـــد مهيأ لها ، وسط الظروف التي كانت تحيط به حين أقبـــل عليه أول ما أقبـــل .

فلقد اخترنا طريقنا الى التقدم في ظل من قيم انسانية نابعة من صميم شخصيتنا ، ورفضـــنا أن تحقق اهدافنا على حساب زيادة شـــقاء الشعب العامل واستغلاله ؛ كما رفضنا أيضا أن نلجـأ الى التضحية الكاملة بأجيال حية في سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة (٢) .

ولذا فقد واجهتنا منذ اللحظة الاولى تلك المعـادلة الصـعبة التي سبق الاشارة اليها ، والتي كان علينا أن نتصدى لها بتنظيم ذي كفاية عاليـــة يعتمـــد على مركزية في التخطيط ولامركزية في التنفيـذ (٣) ، لامركزية تعتمد في مواقع العمـل على قيـــادات من خبراء وفنيين نيطت بهم عمليـــة تحريك التطور الوطني (٤) ، ثم تنظيمات عمالية لم تعد كما كانت في الماضي ، طرفا مقابلا لطرف الادارة في عملية الانتاج ، وانما قاعدة طليعية في عملية التطوير (٥) .

---

(١) الميثاق الباب السابع
(٢) الميثاق الباب السادس
(٣) الميثاق الباب السادس
(٤) الميثاق الباب الثامن
(٥) الميثاق الباب السابع

واذا كان الميثاق قد حثنا على أن نحرص على تلك الثروة الوطنيـة من خبراء وفنيين ، فنسعى الى تنميتها وحمايتها ، الا انه أوضـح بجلاء أنها فى بعض الاحيـان فى حاجة الى حمايتهـا من نفسهـا (١) ، اذ أنهـا ربما توهمت أن مشاكل التطوير الوطنى يمكن حلها استنادا الى سلطاتها الادارية أو المكتبية ، فتصـبح طبقة عازلة تحول دون تدفق العمـل الثورى (٢) ، أو أن تتردى فى مهاوى التنـازع على السلطة مع مثيلاتهـا فى مواقع العمـل المترابطة معها ، فتصـبح كل منها عقبة أمام جهود الاخرى ، ثم يصيبهـا الشـلل جميعـا (٣) ، وأخطر من هـذا كله أن تنحرف ، متصورة أنها تمثل طبقة جديدة حلت محل الطبقة القديمة ، فيتركز اهتمامهـا فى أن ترث امتيازاتهـا (٤) ، أو أن تتوهم وقد عينت بقرارات جمهورية انها الممثل الحقيقى للدولة ، وان الدولة فى المجتمع الاشتراكى هى فوق الشعب ، أو أنها شىء آخر غير الشعب .

وفى الناحية الاخرى ، وبعد حرمان طال مداه ، وبعد طفرة صناعية جبـارة ، جاءت قوانين يوليو عام ١٩٦١ ، فكفلت للطبقة العـاملة حقوقا ثورية ، من حد أدنى للاجور ، واشـتراك ايجابى فى الادارة يصـاحبه اشتراك حقيقى فى الارباح ، فأصبح العامل هو سيد الآلة ، بعد أن كان ترسا من تروس الانتـاج (٥) ، ولم يعد العـامل ، كما كان ، سلعـة من السـلع يشتريهـا رأس المـال المستغل (٦) بأبخس الاثمـان فى سوق المساومة على لقمة العيش .

فاذا نظرنا الى الميثاق ، وجدناه يقول ان ذلك التغيير الثـورى فى حقوق العمـال لابد وأن يقـابله تغيير ثورى فى واجباتهم (٧) ، وأنه بعد أن تحققت ملكية الآلات للعمل ، أصبحت مسئولية العمل فى ان يتولى الحفاظ على أدوات الانتاج وتشغيلها بكفاية وأمان ، بل أن مكانة العمال فى المجتمع الجديد لم يعد لها من مقياس غير طاقتهم على العمل وكفايتهم فى الوصـول الى الهدف الاسـمى الذى هو انجـاح عملية التطوير الصناعى (٨) .

وصـحيح أن قوى الشعب العـاملة ، فى مواقع الانتـاج ، من فنيين واداريين وعمـال ، وعت دورها الاجتماعى ، وان من انزلق منها انما أعداد ضئيلة فى مجموعها ، الا أن مرحلة الانطلاق التى نجتازها لاتحتمل

---

(١) الميثاق الباب الثامن
(٢) الميثاق الباب الثامن
(٣) الميثاق الباب الثامن
(٤) الميثاق الباب الثامن
(٥) الميثاق الباب السابع
(٦) الميثاق الباب الخامس
(٧) الميثاق الباب السابع
(٨) الميثاق الباب السابع

تقصير أى فرد من أبناء هذه الامة ، وانها فى حاجة لكل جهد . وفى هذا يقول الميثاق ان وعي كل مواطن بمسئوليته المحددة فى الخطة الشاملة هو توزيع للمسئولية على نطاق الامة كلها فتتعزز احتمالات الوصول الى الاهداف ، كما أنها عملية انتقال ثورية بمعنى العمل الوطنى (١) .

تلك أمثلة متفرقة عنت لى ، منها ما يتعلق بأسلوب العمل الوطنى ، ومنها ما نجم عن تربص رجعى داخلى بمثلنا الاشتراكية ، أردت بها أن أبين أهمية رجوعنا الى الميثاق ، ذلك التجسيد الحى لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ، مستودعا لآمالنا وأحلامنا ، وذخيرة لاساليب عملنا الوطنى، نرجع اليه فلا نعى منه الا ذاك القدر الذى يتناسب مع اهتماماتنا ، فاذا عرضت لنا مشاكل جديدة وتملكتنا حيرة ، فاننا ندهش اذ نعود اليه فنجد أن لم يفته التعرض لتلك المشاكل على جدتها ، ولم لا ؟ فجميع المشاكل التى تعرض لنا انما ناجمة عن احتكاك مجهوداتنا بواقعنا ، وهذا وتلك انما امتداد لشخصيتنا ، وليس الميثاق الا تجسيدا بارعا لصميم تلك الشخصية .

⊙❖⊙

ثم مثل آخر ، فقد علمت ، اذ طلب منى بمناسبة العيد الرابع للميثاق كتابة هذا المقال ، أن سوف ينشر فى هذا العدد من « المجلة » المخصص لشئون اللغة العربية .

وحضرنى فورا ما يقوله الميثاق من ان الامة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل (٢) ، ثم اشارته الى دور الشعب المصرى فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة (٣) ، ثم كيف انبثقت من التربة الثورية المصرية بشائر نبت ثقافى جديد راح ينشر الوانا من أزهار على ضفاف النيل الخالد ، ومضات لامعة شدت اليها العناصر المتطلعة الى التقدم ، فأصبحت مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ومسرحا لفنونه وملتقى للثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة (٤) .

هذا ما حضرنى ، وقد علق بذهنى منذ قراءتى الاولى للميثاق ، ولكن أهو كل ما قيل فى هذا الشأن ؟ واذا بى اكتشف ، انه يقول لنا عن اللغة أضعاف أضعاف ما كنت أعتقد ، واذا به ينبض بايحاءات واضحة فى هذا الشأن ، ولا غرو فان الميثاق يقدم لنا فلسفة حياة الانسان العربى فى ثوريته المعاصرة ، فلسفة لا تقيم الانسان بما ورث

---

(١) الميثاق الباب التاسع
(٢) الميثاق الباب الثالث
(٣) الميثاق الباب الثالث
(٤) الميثاق الباب الخامس

من مال أو جاه أو سلطان ، ولكن بما يقوم به من عمل انسانى يستهدف به الصالح الاجتماعى : فهو الانسان المتكامل مع المجتمع ، وليست اللغة كما ينطق بها لسان الفرد الا صدى لحقيقة كبرى هى التى تخلق تماسك الجماعة وتكون وعيها الجماعى : كما أنها ، اى اللغة ، تضرب بجذورها الى حيث منبثق الفكر ، توأمان متلازمان ، هما القوة المحركة لكل عمل يصدر عن وعى وادراك .

وفى مجتمعنا : حيث تتضافر قوى الشعب العاملة للتغلب على التحديات التى تواجهها ، ليس عن طريق حساب الممكن ، بل وصولا الى الامل ، فتعبأ جميع الموارد الوطنية ، المادية والطبيعية والبشرية ، فى اطار من تخطيط اشتراكى علمى مدروس : أصبح من اللازم أن يكون لعملنا الوطنى فلسفة واضحة ، وأصبح ألزم من اللازم أن نصل بتلك الفلسفة الى جميع العاملين فى كافة المجالات ، وبالطريقة الاكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم (١) ، والذى أفهمه من « أكثر ملاءمة » وأرجو أن أكون على صواب فيما فهمت ، أن الميثاق يسعى ، فى فترة انطلاقتنا هذه ، الى التغلب على التفاوت المروع بين مستوياتنا الثقافية ، والذى هو أخطر مخلفات الاستعمار ، أراد به الامعان فى تفتيت الشعب الى طبقية ثقافية ، أعمق أثرا من الطبقية الاجتماعية التى فرضها عليه ، اذ أنها تقف حائلا بين وحدة الفكر ، التى هى المنطلق الى وحدة العمل.

فقد رسم دنلوب سياسته التعليمية على أن يحول بين اللغة العربية وبين أن تصبح الأداة الثقافية لابناء الامة المتطلعين الى أن ينهلوا من معين التطور العلمى ، فاذا أصابوا قسطا من علم ، وعوه فى قوالب لغوية أجنبية متضاربة ، منها ما هو مشدود بولائه الثقافى الى اكسفورد وكمبريدج بتراكماتهما التقليدية ، ومنها من لا يؤمن الا بالفكر « السوربونى » الواضح الرقراق ، ومنها من اتجه كلية الى الاسلوب الالمانى الموغل فى التحليل : أما لغة البلاد والتى كان علينا أن نجعل منها ، بالضرورة وبالطبيعة ، مستودع معلوماتنا العلمية ، فقد أزيحت الى عزلة قاتلة ، منعت بينها وبين كل تطور خلاق ، فتردت الى اجترار مريض ، حتى صارت شخصية « الخوجة » العربى موضعا للتندر والسخرية اذ لم يبق أمامه من مجال ، ولا حيلة له فى ذلك ، سوى مجالات التشديق والتقعير والتعقيب التى ترتبط كما يقول الجاحظ ، بسماجة التكلف وشنعة التزيد .

فاذا كان الميثاق ، كما سبق وأشرنا ، لم يرض بأن تكون طبقيتنا الثقافية ، التى أورثنا اياها الاستعمار ، معوقا لانطلاقتنا ، فانه ، اذ ينظر الى المستقبل ، يحثنا على تنمية ثقافة نابضة بالقيم الجديدة ، عميقة فى احساسها بالانسان ، صادقة فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك كله على اضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كامنة فى أعماقه خلاقة ومبدعة ... » (٢) .

---

(١) الميثاق الباب الثامن
(٢) الميثاق الباب الخامس

فما هو طريقنا الى تلك الثقافة ؛ التي سوف تنتقل « بمعنى العمل الوطنى ، من العموميات الشائعة المبهمة والغامضة ، الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضاله اليومى بحركة المجتمع كلها ..» (١) . ما هو طريقنا الى تلك الثورة الثقافية التى سوف تعتمد على العلم سلاحا حقيقيا للارادة الثورية ، فتقيم العمل الوطنى على أسس من تخطيط علمى منظم (٢) .

هل تقوم تلك الثقافة الثورية على طبقة من أبنائها ، هم وحدهم القادرون بفضل المامهم بلغات أجنبية ؛ على هضم الزاد الفكرى ، اجتماعيا كان أم اقتصاديا أم علميا ، لا ينقلون منه الا ذاك القدر الذى يقدرون عليه ، اذ لا يطاوعهم المامهم باللغة العربية أن يكتشفوا فى مفردات تراثها ما يتسع للترجمة عن دقائق معلومات لم يعوها الا بفضل ثقافتهم الاجنبية ؟ .

لو حدث ذلك ، فانه الاحتكار بعينه ، ولكان تحديا لما جاء فى الميثاق عن حرية العلم التى فى مقدورها أن تفتح أمام شعبنا الثائر طاقات للأمل متجددة أبدا (٣) .

ويحضرنى هنا ما كان يقوله صاحب جريدة المؤيد السيد على يوسف ، منذ خمسين عاما ، من أن التعليم بلغة الامة ينقل العلوم بكليتها الى تلك الامة ، فى حين أن تلقى العلوم عن طريق اللغات الاجنبية ، ينقل قلائل من أفراد الامة الى تلك العلوم ، ويخرج من هذا بملاحظة لها اعتبارها وهى أن العلم طواف فى العالم ، ينزل ضيفا على الامم ولا يستوطن الا اللغات .

وانا لنرى فى الميثاق توجيهات عملية لما يجب أن نقوم به فى سبيل رفع المستويات الثقافية ، منها ضرورة اعادة دراسة مناهج التعليم فى جميع الفروع ، دراسة ثورية هدفها تمكين الانسان الفرد من اعادة تشكيل الحياة (٤) .

ثم تشجيع « الكلمة المكتوبة » فى كافة مجالات العمل الوطنى ، فتتوافر له « ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق من فكر ممتزجة بدقائق من تنفيذ عملى » (٥) .

وتلك « الكلمة المكتوبة » التى يشير اليها الميثاق ، تضرب الى معان عميقة كل العمق ؛ وتحدد لنا موقفنا من العلم كما يجب أن يكون ، لا يريد منا الميثاق مجرد التربص بكل جديد فننقله ، وانما يحثنا على

---

(١) الميثاق الباب الثامن
(٢) الميثاق الباب الخامس
(٣) الميثاق الباب الثامن
(٤) الميثاق الباب الخامس

أن نغرس فى نفوسنا روح العلم ذاتها ، فنتسلح ، اذ نواجه مشاكلنا ، بنظرة علميــة متفحصة ، وهو ما لن يتأتى لنــا الا اذا توســعنا على مستوى القاعدة ، فنجعل المؤلفات العلمية ميسرة لاكبر عدد من المواطنين، فيصيب منها كل « بقدر ما يتحمل استعداده ومواهبه » (١). •

فما هى أداتنا الى كل هذا ؟ ما هى أداتنا الى تلك الثقافة القــادرة على أن تجعل من كلمتنا المكتوبة حتى أدنى مستويات العمل الوطنى ، « ذخيرة هائلة بغير حدود لآفاق الفكر ممتزجة بدقائق التنفيذ العملى؟» (٢)

ما هى أداتنا لندفع بفكرنا الاجتماعى الى تطوير « قيم أخلاقية جديدة ومعان انسانية متفتحة للحياة نابضة بها ؟ » (٣) •

ما هى أداتنا الى «ثقافة نابضة بالقيم الجديدة ، عميقة فى احساسها بالانسان ، صادقة فى تعبيرها عنه ، قادرة بعد ذلك على اضاءة جوانب فكره وحسه وتحريك طاقات كامنة فى أعماقه خلاقة ومبدعة ؟ » (٤) •

ما هى أداتنا الى تلك الثقافة القادرة على أن «تفجر ينابيع الاحساس بالجمال فى حياة الانسان الفرد الحر ؟ » (٥) •

ثم ما هى أداتنا بعد هذا كله ، لنقل دعوتنا ومبادئنا فتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ، ايمانا بمســئوليتنا تجاه الامة العربية كلها ، التى نحن جزء منها ؟ (٦) •

ما هى أداتنا ان لم تكن لغتنا العريقة ، القادرة بفضل من تراث حافل غنى ، أن تمدنا عن طريق مفرداتها ، اذا بذلنــا الجهد فى البحث عنها وتطويرها ، بجميع ما نحتاج اليه ، كما ســبق وفعلت خلال عصــور نهضات سالفة ، هى التى مهدت للعالم أن يصل الى ما وصل اليه اليوم من تقدم وازدهار ، فنخلق ركيزة وطيدة لتلك الثقافة الوطنية التى سوف تدفع بحيــاتنا الثورية الجـديدة الى الآفاق الفـكرية والسياســية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

ألم أقل لكم ان الميثاق لم يترك ناحية من نواحى حياتنا الا وعرض لها ، أنه كأرض مصر ، اذ منها قد انبثق ، يحمل فى طياته ثروات وكنوزا لا تبوح بأسرارها الا بقدر ما نجد فى السعى اليها ..

---

(١) الميثاق الباب السابع
(٢) الميثاق الباب الثامن
(٣) الميثاق الباب السابع
(٤) الميثاق الباب الخامس
(٥) الميثاق الباب السابع
(٦) الميثاق الباب السابع

مؤتمر صوفيا ..
والصين وفيتنام

في منتصف شهر نوفمبر الماضى انعقد فى صوفيا المؤتمر التاسع للحزب الشيوعى البلغــارى ؛ وكانت مناســبة ، درجت الاحزاب الشــيوعية مؤخرا على انتهــازها ، فتضيف الى قائمــة الدعوات التقليــدية الموجهة الى الاحــزاب الماركسية اللينينيــة دعوات أخرى الى عديد من ممثلى الاحزاب الثورية غير الشيوعية وممثلى حركات التحرير التى تناضل فى ســبيل انتزاع استقلالها من براثن الاستعمار المتمركز فى بعض جيوب هنا أو هناك ، وفى القارة الافريقية بوجه خاص ..

وفى هذه المؤتمرات يتولى القائمون على الحزب الداعى عرض الانجازات التى حققوها فى المجال الداخلى ، ويتناولون بالتحليل والتمحيص الظروف التى أحاطت بها والوسائل التى أدت اليها ، سعيا الى خلق ظروف أكثر مواتاة ، وابتداع وســائل اشد فعالية فيرتقون بجهودهم الى مزيد من تقدم ورخاء ..

انها انجازات تطرح ، على أن يكون فى التجارب التى أدت اليها فائدة للغير ، وعلى ان تتفتح أمامهم آفاق جــديدة لم تطرأ لهم على بال اذا ما تجاوب معهم هذا الغير فعرض من لدنه تجاربه الخاصة ، بل أن ما تسديه تلك الوفود العديدة من تحيات تقدير لهو فى حد ذاته حافز تشجيع ودافع الى مواصلة الطريق ، ثم ان التعارف والاتصال يمهدان لعلاقات مستقبلة ، مجزية من حيث ما سوف يترتب عليها من تجاوب وتعاون وتبادل فى الخبرات .

ولذا فان تلك المؤتمرات محورها الاصيل هو خطة التنمية التى فى سبيلها الى اعداد أو تطبيق ، فى ضوء من مراجعة وتقييم لما ســبق وتحقق ، أو لما تمخضت عنه سابقتها من تجارب فهى ذخيرة تتسلح بها أو لما تولد عنها من مشاكل ، فهى تحديات تستوجب المجابهة بما سوف يبتدع من حلول .

ذلك هو محورها ولكنها أيضا منبر تطل منه الوفود على المجال الدولى وما يعتمل فيه من تيارات وتصادمات ، فيقدم ممثلو الاحزاب الشيوعية فى ضوء من مفاهيم أساسية عن وحدة النضال التى تجمع بين الماركسيين اللينينيين فى كل مكان ، صورة لواقع الحال ، كيف أصــبح ولمــاذا ،

انطلاقا الى ما يجب أن يكون »، فهى صورة لتطورات الماضى مرتبطة عبر الحاضر باحتمالات المستقبل ، ثم بالطريق الذى يتحتم عليهم أو يسلكونه اليه .

ولكنهم لم يتفقوا على الطريق ، أم هل نقول ان كانت هناك شكوك وتحفظات أحاطت بالاقتراح الذى أريد له أن يكون هدفا مشتركا لهم جميعا ، فمنهم من وافق بل دفع بذلك الاقتراح دفعا ، ومنهم من تجاهله أو راوغ أو حام من حوله ، ومنهم من رفضه صراحة أو ضمنا.

فان الذى استحوذ على الاهتمامات الدولية للمؤتمر كان موقف الصين وتقييم الاوضاع فى الصين ، ثم الطريق الواجب سلوكه تجاه الصين .

وانها لقصة عميقة الجذور ، بدأت بتفجر الخلاف علنا بين موسكو وبكين بعد سنين طويلة من تستر على رواسب الشك وهى تتراكم ووجهات النظر تتزاحم فتتهايل من تحتها جسور التفاهم .

ولست بصدد ابراز دور « خروشوف » فى تعميق هوة الخلاف ، فقد سبق ان فعلت فى مقال سابق ، وانما أبدأ من حيث بدأ زعماء الاتحاد السوفيتى الحاليون فاحتووا الخلاف ضمن السياسة العامة التى واجهوا بها المشاكل التى خلفها لهم « خروشوف » تلك السياسة التى غلبت على المؤتمر الثالث والعشرين للحزب ، فسمحت لنفسى بأن أسميه فى مقالى السابق الذى أشرت اليه ، بمؤتمر « تصفية الخروشوفية » .

لم يحاول زعماء الاتحاد السوفيتى تجاهل الواقع ، فالخلاف موجود ولكنهم حاولوا أن يتمالكوا أنفسهم على عكس ما كان يفعل خروشوف فلا يدفعوا بالخلاف دفعا الى الحافة حيث لا مكان الا « لنعم أو لا » ، لارتباط كامل أو انفصام قاطع .

بدأ زعماء السوفييت من حيث كان عليهم ان يبدأوا ، وهو الاخذ بمبدأ الحفاظ أولا وقبل كل شىء على واجهة عريضة تعلن على الملأ وحدة الحركة الشيوعية والعمالية ، وليجر وراءها ما قد يجرى من خلاف عل أن تتوصل الاتصالات الثنائية المباشرة أو الوساطات ، وياحبذا لو حصرت فى أضيق الحدود ، الى تنقية الجو ، فتنتقل الاهتمامات الى ما يجمع ولا يفرق ، وتعزل أوجه الخلاف تدريجا داخل جيوب محددة فلا تستشرى طولا وعرضا الى أن تتهيأ الظروف المواتية لمعالجتها موضوعيا .

واذا كان الزعماء السوفييت قد رفعوا راية الوحدة الدولية ، فانهم لم يفعلوا ذلك عفوا فهى مضمون الشعار الذى أطلقه « ماركس » بحث عمال العالم « أن اتحدوا » شعار كان المنطلق إلى الثورة البلشفية فيما بعد ، وان تحول مضمونه ذاك حين رفع « ستالين » علم « الاشتراكية فى بلد واحد » الى واقع من التفاف شامل حول « قاعدة الاشتراكية » فى ذلك البلد الواحد ، أجراء ملح أملته الظروف ، فأصبح لزاما على الاحزاب الشيوعية والعمالية الا تبخل بجهد أو تمسك عن تضحيته

حفاظا على سلامة « القاعدة » ودفعا بهـا الى مزيد من قوة ، فتتحول الوحدة الدولية عن مفهومها الماركسى الاصلى ، الذى هو اتحاد بين أقران الى سيطرة مركزية تقوم فيها موسكو بدور الآمر الناهى دون مساءلة أو مرد ..

ولكنه حال ما كان يمكن له أن يدوم ، فقد زال عهد ستالين ، كما استقرت النظم الشيوعية فى عديد من دول العالم وخاصة فى أوروبا الشرقية على أسس راسخة من تطور صناعى وتكنولوجى متقدم ، وارتفعت أصوات لها وزنها تنادى باعادة النظر ، عودا الى المنابع البكر للماركسية فيلاحمون بين مبادىء العقيدة والاوضاع المتطورة الجديدة ، وكان ابرز ما قدم فى هذا الصدد نظرية « المركزية المتعددة » «لتولياتى» زعيم الحزب الشيوعى الايطالى ..

ثم أنه نفسه ، صاحب الخطاب المشهور ، الذى حاول فيه مواجهة العنف والرعونة اللذين تميز بهما اصرار خروشوف على الدعوة الى مؤتمر عالمى للاحزاب الشيوعية ، هدفه الوحيد طرد الصين من المعسكر الشيوعى فتنصدع الوحدة الدولية صدعا لا رأب له .

واذا كانت آراء « تولياتى » قد استمدت من مكانته الفكرية العليـا فى صفوف الشيوعية الدولية فان وفاته شحنت ذلك الخطاب والآراء التى فصلت فيه ، بطاقات هائلة ؛ اذ بدا وكأنما قد أودعه وهو يجود بأنفاسه الاخيرة خلاصة فكره وحسه وعميق ايمانه وديناميكية مشاعره « وصية تولياتى » ، كما أصبح يعرف هذا الخطاب ، كان لها ولا شك أثر كبير فيما قرره أول مؤتمر من نوعه ، يعقد فى موسكو بعد تنحية «خروشوف» فى مارس من عام ١٩٦٥ فيجمع بين تسعة عشر من كبار الاحزاب الشيوعية تتفق على استبعاد الدعوة الى مؤتمر عالمى للاحزاب الشيوعية والدولية مالم يسبقها الاتصال بالاحزاب جميعا دون استثناء ، والحصول على موافقتها .

وفى المؤتمر الثالث والعشرين من الحزب الشيوعى السوفيتى فى العام التالى التزم السوفييت بنفس هذا الخط ، وابرزوا بوضوح حرصهم على وحدة الحركة الشيوعية وأعربوا عن ايمانهم بامكان التوصل الى معالجة نقاط الخلاف بين موسكو وبكين أو تضييق شقته عن طريق لقاءات ثنائية بين الحزبين الكبيرين .

أم هل كان الزعماء السوفييت يقدرون بألا امكانية التقاء ؟ .

فان خطاب بريجنيف فى ذاك المؤتمر لم يخل من تنديد بما أسماه بالانحرافات « نحو اليسار » المرتبطة كما قال بمظاهر النعرة القومية أو محاولات السيطرة ، كما أن خطاب « كدار » سكرتير أول الحزب الشيوعى المجرى عرض بالمسئولين الصينيين تعريضا عنيفا ، وانه لمن المشكوك فيه أن يتطرف كدار فى رأيه هـذا فينفرد به أو يكاد ، دون احساس بأن ذلك سوف يقابل بركيزة من تجاوب ، أعلنت أم أخفيت فى

الصدور ، فاذا كان ذلك هو تقدير الزعماء السوفييت ، واذا كان صوت كدار ترديدا لما كان يختلج فى قلوب بعض من زعماء دول أوروبا الشرقية من شكوك ؛ فانها ولا شك مواقف ارتكنت الى واقع ملموس من هوة فكرية تفصل بين موسكو وبكين، سوف يزيد من اتساعها تضارب وجهات النظر بين الجانبين فيما يتعلق بالمشاكل الدولية بما يمس مصالحهما الحيوية ؛ هوة لا سبيل معها الى التقاء .

فالاتحاد السوفيتى قد أصبح نصيرا « للأوضاع الراهنة » النابعة من اعتناقه لسياسة التعايش السلمى ، هى بدورها وليدة الرادع النووى الرهيب فهو يعلن احترامه للحدود السياسية القائمة ، وأن كان يؤكد عدم تراجعه عن استعداده لمناصرة حركات التحرير وكفاح الشعوب بل ومحاولات التغيير الاجتماعى ولكن مع الحرص التام دوما على تأكيد احترامه للقوالب الجغرافية التى احتوت شتى البلاد .

أصبحت الحدود الجغرافية لها قدسيتها فى نظر الاتحاد السوفيتى ، وهو موقف لم تحاول موسكو أن تخفيه ، فاثار مرة هنا فى القاهرة تساؤلا عما اذا كانت تعنى به أيضا حدود المنطقة المحتلة من فلسطين ، فأكدت أن الامر ليس كذلك ، فهى خطوط هدنة وليست حدودا ، انما النظرية السوفيتية تهدف أساسا الى تثبيت خط «أودر - نيسى » ، حدا طبيعيا بين الشعوب السلافية وبين احتمالات انبعاث جديد لاخطار « توتونية » طالما عانت منها روسيا فى تاريخها الطويل .

انها نظرية متوائمة مع التعايش السلمى الذى فرض نفسه نتيجة للتطور المذهل فى الاسلحة النووية ، فيجرى الصراع بين الشيوعية والرأسمالية على أرض التنافس الاقتصادى والصناعى والاجتماعى بدلا من ميادين التصادم العسكرية ، ولكنها تعنى أيضا بصورة أو أخرى فى ضوء من ظروف المستقبل القريب على الاقل ، تثبيت تقسيم ألمانيا .

أما الصين فهى من هذه الناحية على طرفى نقيض. ليس للمسئولون فى بكين وحسب، ولكن كل من تشبع فكره بالتراث الصينى الاصيل ، حتى « كاى تشيك » القابع فى « تايبيه » فى حماية الاسطول الامريكى السابع ، دمية تحركها خيوط السياسة الامريكية فى « مسرح العرائس » الذى تسميه واشنطن « بالعالم الحر » ، دمية بالية طيعة تلبى الاوامر فى حدود طاقاتها المتواضعة ، ولكنها تنتفض فجأة فتتنمر اذا ما أحست بالاتجاه الى اقرار تقسيم الصين الى دولتين منفصلتين .

الصين هى الصين ، وحدة لاتقبل انفصاما أو اقتطاعا لاى جزء من أجزائها ، واذا كان السعى الى اعادة توحيدها ربما عرض العالم لحرب ذرية مدمرة شاملة ، فلتكن الحرب ! انهم يمثلون ربع سكان العالم ، فاذا قضت الحرب على ملايين البشر فماذا فى ذلك؟ سوف يبقى على قيد الحياة بضعة من سكان الصين قادرين بعد كل على التكاثر والتناسل ، وهذا الذى اقوله ليس افتراضا أو استنتاجا ، فقد أعلنها الوفد الصينى صراحة فى المؤتمر الحادى والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى فى نوفمبر عام

١٩٦٠ ، متباهين بأن بلادهم تضم ٦٥٠ مليونا فاذا قضت الحرب الذرية على نصفهم أو يزيد ، فالنصر للنظام الشيوعي آخر الامر ، بفضل ما سوف يتبقى من صينيين على قيد الحياة . وجهة نظر أثارت الفزع فى صفوف الاحزاب الشيوعية الاوروبية حيث كثافة السكان وتزاحمها مع المنشآت الصناعية على ساحات أرضيــة تضيق بها ، تعرض الشعوب لفناء كامل شامل ذريع .

نقطة خلاف جوهرية ليس من ســبيل الى تجاهلهــا ، تضاف اليها المنازعات الاقليمية التى استعرت بين البلدين فى السنوات الاخيرة لدرجة يصعب على اى من الجانبــين التراجع عنها ، فالموقف برمته كان ينذر بحتمية التفجر ، لولا أن الحرب تصاعدت فى فيتنام .

كانت الصــين تنظر الى الاتحاد السوفييتى نظرة ريبة وشك ، بلغت ذروتها خلال حكم خروشوف فقد أصاب اقتصادياتها بضربة أريد لها أن تكون قاصمة ، حين سحب جملة الفنيين الروس عام ١٩٦٠ ، وقدروا ان هدفه الاساسي عرقلة التقدم التكنولوجى فى الصين فلا تتوصل الى انتاج قنابل نووية خوفا من أن تفجر بها حربا عالميــة فى مواجهــة التحرشات الامريكية الهوجاء .

خطوة أعقبها خروشــوف ، بعد مفاوضات سرية طويلة ، بالاقدام على توقيع اتفــاقية الحظر الجزئى للتجارب الذرية فى منتصف عام ١٩٦٣ ، وشعرت الصين أنها امام مؤامرة سوفيتية أمريكية ، ترمى الى الاحتفاظ للدولتين الكبيرتين باحتكار لتلك القوى الرهيبة يهيىء للجانبين اذا مازادت بينهما أسباب التفاهم تقسيم العالم الى مناطق نفوذ ، استنادا الى جوهر الاوضاع الدولية السائدة حينذاك ، فى ضوء من تعديلات هامشية طفيفة هنا أو هناك ، وأقول الدولتين الكبيرتين لان بريطانيا وأن كانت هى الاخرى قوة نووية فهى من حيث السياسة الدولية ذيل لامريكا ولا تزيد .

وماذا اذن عن فيتنــام الجنوبية ؟ فقد ألقت حكومة جونسون بثقلها العسكرى هناك نذيرا بتصميم عنيد على أحكام حلقة الحصار حول الصين ، بينما الاتحاد السوفييتى ، فى تقدير زعماء الصين ، قد أثبت حين فرض عليه كشف أوراقه بعد مغامرته الفاشلة فى كوبا ، انه عازف عن التورط الى درجة المجابهة ، وان ما يدعيه اذن من حرص على تقديم المساعدة الى الشعوب المكافحــة فى سبيل الاستقلال والتحرر ، انما أقوال فى فراغ ، لا توائم بينها وبين سياسة التعايش السلمى التى اعتنقها فاعلنها ، فاذا كان هذا حاله تجاه محاولات التغيير أو الدفاع عن النفس التى تلجأ اليها الشعوب داخل جدودها المرسومة ، فالاتحاد الســوفيتى اذن أحرص من أن يتعرض للامر الواقع الذى فرضــته تخطيطات حدود مهما كانت فى الاصــل جائرة منافية لمصــالح الشــعوب ، ليس الموضــوع هو خط « أودرــنيسى » فحسب ــ وهكذا فى تقدير زعماء الصين ــ وانما الحدود القائمة فعلا فى انحاء العالم جميعا ، بين شطرى المانيا ، فهو خط احتكاك شديد الحساسـية ، وبين شطرى كوريا ، ليس لان القوات الامريكية فى

الجنوب تحمل علم الامم المتحدة فحسب ، ولكن ربما أيضا نكاية فى الصين واطلاقا ليد أمريكا فى أحكام الحصار من حولها، ثم فيتنام ، أليست هي كوريا أخرى ، والطرف الجنوبى للكماشة الامريكية التى يمكن أن تأخذ بخناق الصين ؟ .

وفى تلك المرحلة بالذات ، التى خاضت خلالها جبهة التحرير فى فيتنام الجنوبية غمـــار الحرب معتمـــدة اعتمادا اساسيا على جهود الشعب وتصميمهم العنيد ، دون معونة مادية من الخارج ذات بال ، اهتزت مكانة الاتحاد الســوفييتى فى أوســاط حركات التحرير فى بقاع العالم أجمع ؛ بينما ارتفعت اسهم الصــين ، فالصين كانت تتكلم وتهدد وتتوعد أمريكا بالويل والثبــور ، فى حين يعلن « خروشــــوف » بانتقال المعــركة بين الشيوعية والرأسمالية الى ميادين الاقتصاد والتصنيع ومحــاولات غزو الفضـــاء ، ثم هو اذا غامر مرة تراجع مرات كما حدث فى كوبا ، بل ان أزمة كوبا ــ فى رأى الصينيين ــ ثلمت روح الكفاح التى يجب أن يتميز بها كل من آمن بحتميـــة الانتصار المصيرى للشيوعية الدولية ؛ فيتحول الشعار الســوفيتى الى « عش ودع غيرنا يعيش » .

الا ان تطورات هامة طرأت على الموقف بعــد اغتيــال « كنيدى » فى نوفمبر من عام ١٩٦٣ ، كان شخصا تنبض كل خلية فى جسده بحواس من غريزة سياسية مرهفــة ، عرف كيف يسخر امكانيات امريكا الهائلة فتصبح طوع انامله ، تنساب منها فى الحــان مترابطة كأنها مقطــوعة موسيقية ساحرة تهدر بالنغم الصاخب حينا لتخفت فجأة فاذا بها نداء رخيم ينساب متسللا الى شغاف القلوب ، ثم ترتفع فى ايقاع متتابع فيه تأكيد وعزم وتصميم ربما أوحى بأن ســـوف يتصاعد مرة أخرى الى نذير ، ولكنه لا يفعل فيشعر السامع براحة نفسية تجعله فريسة سهلة لما قد يتبعه من هديل أو حنــين ، فاذا مادفع «بجونسون» فجأة الى كرسى الرئاسة اختلط عليه الامر ، فاسلوبه جــد مختلف ، البــون بين الاثنين واسع شاسع كما هو بين أروقة الفكر فى بوسطن ومراعى البقر فى تكساس ، ولست أزعم أن ذلك افضل من هذا أو العكس ، فكلاهما خادم أمين للمصالح الامريكية ، بل ربما كانت جلافة الجنوب أكسب للشعوب فلا تخدع عن حقيقة الاخطار المحدقة بها .

فى تقديرى أن «جونسون» لم يفطن الى حقيقة اللعبة التى كان يمارسها «كنيدى» فى فيتنام ، بل قليل حتى من أقرب اقرباء معاونى « كنيدى » نفسه كان يعلم بها ، فكيف « بجونسون » والجفوة بين الاثنين معروفة غير خافية على أحد ، انما ضرورة حزبية ملحة هى التى جمعت بينهما على تذكرة انتخابية واحدة ، ثم ان خبرة « جونسون » كادت ان تكون محصورة فى مجالات السياسة الامريكية الداخلية ، فوقع فريسة لمراكز قوى الضغط وعلى رأسها وكالة المخابرات المركزية ــ تلك الدولة التى فوق الدولة ــ والبنتاجون المتحـــالف مع الرأسمالية الاحتكارية ؛ تغــذيها العنجهية العسكرية بارباحها الخيالية .

لم يحاول « كنيــدى » قط أن ينظر الى فيتنام منعزلة عن الظروف العالمية، فهى نغمة صاخبة يضغط بها أحيانا ، ولكنه فى اعتقادى كان على استعداد لان يهبط بها الى غير نشـــاز اذا ماتجاوبت معه اصداء أخرى يترقبها . أما الشركات الاحتكارية فلم تكن ترى فيها الا مزيدا ومزيدا من أرباح ، كما ان المقاومة الباسلة للشعب الفيتنــامى كانت قد أصــابت العسكرية الامريكية فى صميم عنجهيتها .

كيف يمكن للعســكرية الامريكية أن تفسر هزائمها المتتالية فى فيتنام وهى التى خلقت لنفسـها هالة من جبروت و « عظموت » ؟ ليس لان الشعب الفيتنامى جميعا قد هب يذود عن حريته فهو اعتراف بالعدوان ، يناقض نظرية خادعة تقول بأنها نصيرة الحرية والديموقراطية اصطفتها العناية الالهيــــة للدفاع عنها فى كل زمان ومكان ، ثم انه ايضا اعتراف ضمنى بقصــور جوهرى فى فعالية جحافلها العسكرية امام القوى المعنوية اذا ماقدر أن يتسلح بها شعب من الشعوب . التفسير الوحيد اذن هو انها تواجه ، اذ تقف الى جانب حكومة ســـايجون « الشرعية » ، تدخلات تخريبيـــة من الخارج ، مساعدات هائلة من عتاد ورجال اتخذت لها من فيتنام الشمالية قاعدة اساسية وانها قد حرصت حتى الساعة الا توسع رقعة القتــال ، وان الضرورة العسكرية أصبحت تحتم عليها الا تتوانى فيما كان عليها أن تقوم به من قبــل ، ولكنها بعد كل ، سوف تمسك عن أن تذهب بالامر الى مداه ، حرصــا على أرواح الملايين ، من غمار حرب طاحنة ، فهى تصاعد بعملياتها . عل أن يصيب قلوب المتربصين بحكومة سايجون قبس من نور فيأمنوا بأن الولايات المتحدة الامريكية هى رسول السلام وموئل الحرية ونصير الديموقراطية .

لم تمض على وفاة « كنيدى » أشهر قليـلة حتى قامت البحرية فى فبراير من عام ١٩٦٤ بأول هجوم أمريكى على فيتنام الشمالية ، وتبعته غارات جوية ابتــداء من اغسطس ، كل منها رد ، فيما قيل ، على هجمة كبرى تقوم بها قوات جبهة التحرير فى الجنوب .

ولكن الولايات المتحدة تخلت فجأة عن اسلوب النقرة مقابل النقرة الى حرب تصاعدية فعلية ومتى كان هذا ؟ خلال زيارة «كوسيجين» لهانوى فى فبراير من عام ١٩٦٥ .

فاذا صح كلام المسئولين الصينيين عن موقف الاتحاد السوفييتى تجاه حركات التحرير ، فقــد أصبح الموضوع الآن جد مختلف ، انما هو تعد على دولة عضو فى المعسكر الاشتراكى ، ليس الى التغاضى عنه من سبيل ، وهو أمر تلقفته الدعاية الصينية بقوة وعنف فى صراعها مع موسكو .

هذا التهديد الخطير لجمهورية فيتنام الديموقراطية الشعبية كان كفيلا برأب الصدع لو أن النيات كانت خالصة ، الا ان الخلاف بين موسكو وبكين كان أعمق من أن يلتئم نتيجة لذاك التهديد ، فقد رأى الاتحاد السوفييتى ان تضع الصين تحت تصرفه داخل أراضيها سلسلة من قواعد جــوية كمحطات لارسال الامدادات العسكرية ـــ فى صورة اسلحة وفنيين ـــ الى

هانوى ، أو كمستودعات يتم منها الشحن على ماتيسر من سكك حديدية، ولكن الصين رفضت الشكل وان لم ترفض المضمون ، فهى توافق على التعاون مع الاتحاد السوفييتى فى هذا الشأن بشرط ابرام تحالف عسكرى بين موسكو وبكين ، فى ظل قيادة موحدة ، والا فلا مناص من اخضاع قوافل الامداد السوفييتى للتفتيش الدقيق ، والذى نعرفه أن موسكو أحجمت عن عقد التحالف المطلوب فهى لاتضمن الى أى مدى قد تحاول الصين استخدامه فى توريطهم ، وهم الذين لم يتورعوا عن الترحيب ولو تطلعا باندلاع حرب عالمية سوف تخرج منها الشيوعية الدولية ولاشك منتصرة، أما الذى لانعلمه عن يقين وان كان فى وسعنا أن نتصوره هو تعرض الامدادات السوفيتية للتعطيل اذا ما اخترقت المجال الصينى : مما أدى الى تحويل جلته الى خطوط النقل البحرى فيستغرق وصولها آمادا من وقت طويل ، كما ان مجابهة تطورات الحرب تتعرض لفجوات خطيرة بين الطلب والمسارعة الى تلبيته .

ولكن يمكننا ان نقول ، رغم استمرار الخلاف بين موسكو وبكين أن الحرب التصاعدية الامريكية ضد فيتنام الشمالية خلقت نوعا من وحدة فى الهدف ، وان ترتب عنها ؛ ليس وحدة فى العمل وانما تواز فى خطوطه العامة ، فى صورة تنافس كل من موسكو وبكين على اسداء المعونة الى هانوى ، وفى ظل ماتقدم ساد فى مؤتمرات الاحزاب الشيوعية السابقة على مؤتمر صوفيا والتى قاطعتها الصين جميعا جو من الهدوء النسبى ، حرصت فيه الاحزاب الشيوعية وعلى رأسها الحزب السوفييتى ، كما سبق أن ذكرت ، على أن ترفع واجهة عريضة من وحدة الحركة الشيوعية والعمالية مع تعللات توحى بأن الخلافات مع الصين انما هى جانبية يمكن معالجتها والتغلب عليها عن طريق اجراء الاتصالات ومزيد من اتصالات ثنائية كانت أم وساطات مثلثة الاطراف .

أم هل كان الشعور الحقيقى ، كما سبق أن ذكرت ، ألا امكانية لالتقاء بعد أن اتسعت الهوة الفكرية بين الجانبين وتضاربت مصالحهما بحدة فى أكثر من مجال ؟

فى اعتقادى ان التقدير هو ماذكرت ، ليس فقط استنادا الى أصوات أخرى ارتفعت تهاجم الصين فى تلك المؤتمرات ، فانها لم تكن فى حقيقتها ناشزة بقدر ماكانت تجسيما لاشارات عابرة أو مجاهرة لهمسات مكتومة، بل ان الصين كانت تتهم فى الاتصالات الخاصة بأنها تلد القول الزاعق والفعل الناكص ، فصاراها ان تهدد وتنذر ثم لا شيء ، تنادى بالحرب الذرية لان ليس بها أهداف من تلك التى سوف تتعرض للضرب الذرى ، تقوم بمساعدة حركات التحرير ثم اذا بها محاولات لكسب أفراد ، فتفتت قيادات تلك الحركات من الداخل نتيجة التصارع على الزعامة .

ثم ماهو حقيقة موقف الصين من الحرب الدائرة فى فيتنام ؟ يقول الجانب الآخر ان الصين انما يهمها توريط امريكا الى أقصى حد ولاطول مدة ، لايعنيها الا أن تستنزف من طاقة امريكا العسكرية ريثما يصبح لها

هى الاخرى الرادع النووى ، فاذا كانت تقول بأنها تقف مع شعب فيتنام فانها فى الحقيقة لاتقـــدم معونات الا بذاك القـــدر الذى يساعدها على الاستمرار فى المقــاومة فلا يتعداه الى ماقد ترى فيه امريكا استفزازا لها فتنقل المعركة الى الصين نفسها .

وليس الموقف فيما اعتقد على تلك الصورة التى يقدمها لنا الجانبان ، زاعقة ناكصة من جانب الصين أو هادرة محبوسة داخل اطار من تعايش من جانب الاتحاد السوفييتى، بل كان واضحا ان كليهما يحاول ان يسدى الى فيتنام المعونة المادية والمعنوية فى حدود ما يتيسر له من طاقات وسط ظروف دولية قاسية، فقد اصبح موقفهما من فيتنام هو المحك الحاسم، معيارا لصلابة اى منهما فى مواجهة المدالامبريالى ، فهى اذن بشكل أوآخر ميدان تنافس ؛ ليس سعيا الى اقرارزعامة هذه أو تلك بين دول المعسكر الشيوعى وحسب ، وانما أيضا من حيث اقرار خط عقــائدى قادر على اجتذاب جمهرة الشيوعيين ، فالاتحاد الســـوفييتى يرى أن مسئوليته العقائدية تتخطى الحكومة الصينية الى سبعمائة المليون الذين تمثلهم ، ثم انهم ذخيرة عددية لايستهان بها ، وكذلك الصين أو على الاقل فيما يتعلق بشعوب الجمهـــوريات السوفيتية الاسيوية ، علاوة على شعورها بأن الامكانيات العســـكرية السوفيتية تمثل بصورة أو أخرى رادعا تدخله العسكرية الامريكية فى حسابها اذا ماساورها أن تتحرش بالصين .

هكذا كان الحال فيما يبدو قبل انعقاد مؤتمر صوفيا ، ولكن التطورات الداخلية فى الصين كانت قد قلبت الموازين فان ثورتها الثقافية لم تكن تعنى الا ان الصين قد أدارت ظهرها للعالم الشيوعى الاوروبى وخاصة حين ارتفع شعار « الماوية » فطغى على الشعار التقليدى الذى ينادى «بالماركسية اللينينية » ، ولكن الامر الخطير هو ان تلك النقلة استدعت اجراء تطهيرات واسعة فى صفوف الحزب الشـــيوعى الصينى ، لم يقدر عليها أصحاب الفكر «الماوى» الجديد الا بالتجاء الى العنف ممثلا فى الجيش من ناحية، وكتائب الحرس الاحمر التى كونت على عجل ، وقوامها شـــباب يسهل استثارة حماســه الى حوافز جارفة ، بينما تنقصه روادع أورثته اياها التقاليد أو زواجر اكسبته اياها الممارسة « الماركسية اللينينية » .

تطورات جد خطيرة لايمكن السكوت عليها ، فقد خرجت الخلافات عن محيط التضارب العقائدى بين الاحزاب ، الى مجالات اخرى ، فالطرف الصينى فى نظر المعسكر السوفييتى لم يعد حزبا وانما شرذمة من أفراد يسعون الى السلطة على انقاض الحزب ، وانها لجريمة الجرائم بالنسبة للماركسية التى لاتعترف الا بالحزب موئلا وقاعدة ومنطلقا .

تطورات كان لها ردود فعل فى مختلف انحاء العالم الشيوعى ، فالحزب الشيوعى اليابانى يجتمع ليطهر صفوفه من الجناح « الصينى » القوى ، ويقبل الدعوة الى مؤتمر صوفيا وهو الذى قاطع مؤتمرات موسكو وبراج، حتى البانيا حليفة الصـــين اللصيقة ولا تزال ، وبالرغم من انها التزمت بمقاطعة المؤتمر ، فالملاحظ أنها أصبحت تتجاهل فى صحفها الاخبار التى

تترى من الصين عن تفاصيل « ثورتها الثقافية الكبرى » ، وفى هذا الجو المشحون المعبأ ضد زعماء الصين انعقد مؤتمر صوفيا .

ولاول مرة منذ تنحية «خروشوف» يرتفع النداء بضرورة عقد مؤتمر عام للاحزاب الشيوعية والعمالية، نداء يتبناه « جيفكوف » سكرتير أول الحزب الشيوعى البلغارى فى خطابه الافتتاحى ، أريد به أن يكون « النغمة الدالة » للمؤتمر فى المجال الدولى ، أو اشارة تحرك ، خاصة وقد تلقفه فى الخطاب التالى « بريجنيف » السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفييتى ورئيس وفده الى المؤتمر ، فتهرع الاحزاب الشيوعية جميعا من خلفه تساند النداء بكل ما أوتيت من قوة . فالنداء معناه اجتماع الاحزاب الشيوعية لمواجهة التطورات فى الصين التى أقلقت الجميع ، ومؤداه هو طرد الصين آخر الامر من حظيرة المعسكر الشيوعى .

فاذا كانت الاحزاب لم تفعل ، فربما يعود الامر الى روح الاستقلال النسبى التى أصبحت تتمتع بها فلا تريد أن تبدو وكأنها لاتزال رهن اشارة موسكو ، علاوة على أنها قد غذت نفسها طوال الاعوام الاخيرة بنظرية تدعو الى استنفاد الجهود فى سبيل الحفاظ على الوحدة الاشتراكية والعمالية مهما وهت خيوطها فهى مشاعر وآمال قد ارتفعت الى مرتبة من ايمان ، عسير أن يتخلى عنها المرء بين يوم وليلة ، ثم ان بعضا منها لم ينس انه قد تسامى الى مكانة دولية خاصة بأن تحدى موسكو ، عقائديا بالنسبة للحزب الشيوعى الايطالى حين كان « تولياتى » ، واقتصاديا ثم سياسيا بالنسبة للحزب الشيوعى الرومانى ، فقد أحرز تقدما صناعيا حين خرج على تعاليم الكوميكون ، وتبوأ أهمية خاصة حين أصبح نقطة الاتصال الحيادية بين موسكو وبكين ثم انه يداهن وتسعى اليه الوفود شيوعية كانت أو غير شيوعية ، حين أصبح ينادى بتصفية حلفى وارسو والاطلنطى .

أم هل تعتقد تلك الاحزاب الشيوعية الكبرى التى لم تؤيد النداء أو تحفظت بصدده ، الرومانى والايطالى كما ذكرنا ، ثم الالمانى الشرقى والبولندى واليابانى بل والمنغولى (موقف غريب من حزب عرف بعدائه التقليدى لزعماء الصين) انه ربما كان من الاسلم — بدلا من العمل على طرد الصين — السعى الى تهيئة الظروف المواتية للعناصر الصينية القادرة على التصدى اخر الامر للموجة العارمة التى أطلقها طغيان الجيش والحرس الاحمر على كوادر الحزب فى الصين ، فهناك بوادر مقاومة شعبية ، كما أن هناك ايضا بوادر قلق تنتاب الثالوث الحاكم ، « ماو » و « لن باو » و « شو ان لاى » كلما تجاوزت كتائب الحرس حدودالمعقول

وفى هذا الجو المشحون يقف رئيس وفد فيتنام الشمالية فيزجى خالص الشكر والتقدير باسم الزعيم « **هوشى منه** » « للاتحاد السوفيتى والصين والاحزاب الاشتراكية الشقيقة لما تقدمه من مساعدات فعالة » ثم يعرب عن تمنياته فى ان تتوصل الاحزاب الاشتراكية الى تنسيق جهودها بطريقة افضل فى عملها المؤازر لكفاح الشعب الفيتنامى .

فلاشك ان الخلاف الصيني السوفيتي كان الثغــرة التي استغلتها الإمبريالية الامريكية فتلقى بثقلها العسكري على فيتنام بشطريها .

وإذا كان واضحا أن الاتحاد السوفيتي من جهة والصين من جهـــة اخرى لن يقبلا قط بان يصل العدوان الامريكي على فيتنام الشمالية الى مداه ، فهي عضو في المعسكر الشيوعي ، الا أن نداءات الاتحاد السوفيتي السابقة على مؤتمر صوفيا والتي كانت تدعو الى تصفية الخلافات مع الصين وصولا الى وحدة عمل متآزرة في فيتنام قد تحولت ، مثلها في الصين ، الى اتهامات متبادلة بأن الانحراف العقائدي لدى الطرف الآخر انما هو مساعدة مباشرة للعدوان الامبريالي .

كان الخلاف بين الجانبين مدعاة الى تنافس في تقديم المعونة ، فاذا به يتحول الى حجة يتذرع بها كلاهما فيلقى مسبقا بتبعة الفشل ، اذا ما وقع ، على الجانب الآخر والفارق بين الموقفين ، اذا صح تقديري ، مليء بشتى الاحتمالات الخطيرة .

اعود فأقول أن الجانبين لن يسمحا قط بانهيار الحكم الشيوعي في فيتنام الشمالية . **ولكن ماذا عن فيتنام الجنوبية ؟ هذا هو السؤال .**

وقد قدر لي في مناسبات عدة ، خلال مؤتمر صـــوفيا ، ان اتبـادل الحديث مع أعضاء وفد فيتنام الجنوبية ، فنطقت عيونهم ، أو هكذا خيل لي ، بما لم تنبس به شفاههم ، قرأت فيها ما سبق أن وعته قلوبنا أيام حرب السويس ، نحن الشعوب الصغيرة قد تأتينا المساعدات ممن يقدر عليها ، ولكن الدول الكبرى لها ظروفها ولها اهتماماتها التي ربما أملت عليها أن تتخذ بعضا من خطوات ، ولذا فان نجاحنا في الدفاع عن حريتنا ومقدراتنا رهن أولا وأخيرا بما تقدمه شعوبنا من جهد وعرق ودماء » .

الواقع السياسى..
لأفريقيا المعاصرة

الأساطير نوعان ، قديمها معروف ، أما المحدث منها فهو تلك الافكار ، متفجرة الطاقات ، القادرة على الهاب عواطف الجماهير ، اذ تنعكس فيها نوازع الشعوب ، وتطالعها بأن تحقيقها يقين ، كان حريا بها ان تكون عنوانا حيا للآمال الطموح ، وتجسيدا لما تصبو اليه من أهداف من طريق حشد الجهود فى مجالات الانجاز ، الا أنها ، وهى المترسبة فى أعماق الوجدان عرضة لان تحيلها الزعامات الانتهازية الى مجرد شعارات ولكن يا لها من شعارات فتبدو كانما هى المفاتيح السحرية الى الفردوس الموعود ، دون ما حاجة الى عمل أو مجهود .

وافريقيا المعاصرة نهب لتجاذب عنيف بين الاساطير ، قديمها وحديثها فتتمزق فيها المجتمعات الى متناقضات ، ليست هى متناقضات واقع موضوعى بقدر ما هى تصادمات بين ذاتيات القرون والاجيال ، جمهرة ما تزال قبلية التركيب ، تحكمها أساطير الاولين اذ ليست مجرد خرافات **وانما أصلا فلسفات حياة** ، تخلفت ولا شك عن عصرنا الذى نعيش فيه ، فأصابها تيبس وجمود ، ولكنها ما تزال قابعة فى اللاشعور الجمعى ، قادرة بعد كل ، فليس لها من بديل ، على أن تفلسف ، كما فعلت عبر الدهور ، لتلك الحياة البدائية التى لا تزال ترون .

ثم طبقة هشة من حكام واداريين وأنصاف فنيين ، نالوا قسطا من ثقافات أوربية ، فأصابت نفوسهم بانفصام فى القيم والمعايير ، ويودون ، شعروا بذلك أو لم يشعروا ، لو أنهم تخلصوا من جذور ماضيهم ، فهو اما سبة أو مهزأة ، فاذا ما انتزعت المواطىء من تحت اقدامهم أصبحوا عرضة للتطوح والضياع ، الا أن يختلقوا لآمال الشعوب مضامين أسطورية ترياقا سحريا لما تعانيه القارة من علل ومتناقضات ، « **فالشخصية الافريقية** » واقع فعلى يحفظ للقارة كيانهـا و « **الوحدة الافريقية** » شعور حى ، بل صيحة تطلق فتنهار السيطرة الاستعمارية وكأنها لم تكن و « **الاشتراكية الافريقية** » شعار يرفع فاذا الغيث قد انهمر وتزدهر القارة لتتبوأ المكانة التى تستحق فى عالم اليوم ، تلك الاهداف السامية التى تتطلب جهدا منظما وتخطيطا واعيا مدروسا ، يحيلونها الى تعاويذ سحرية كفيلة بتحقيق الآمال دون كد أو تعب فيخدعون شعوبهم ويسلبونهم ارادة العمل تمكينا لهم من الاستمرار فى مراكز السلطة .

⊙❖⊙

فى السنوات العشر الاخيرة اجتاحت أفريقيا موجة عارمة من تحرر فارتفع عدد دولها المستقلة الى ثمان وثلاثين ، تضم أكثر من ٩٠٪ من أبناء القارة ، وتفترش ما يربو على ٨٥ ٪ من مساحتها ، وشهدت سنة

١٩٦٠ وحدها ميلاد سبع عشرة دولة جديدة ، فهى بحق « سنة افريقيا » كما قيل .

ظاهرة لا مثيل لها ، وكأنما مد جارف قد طغى فاكتسح القارة ، من خارج وليس من داخل ، فقليل هى البلاد التى انتزعت استقلالها بعد ثورة أو كفاح ، أو بعد اعداد وتنظيم فعبأت شعوبها تتحدى أو نسقت بين ما بدر من تفجرات ضد سيطرة الاجنبى بطول البلاد وعرضها ، انما فى الاغلب والاعم أعلام استقلال عثر بها فى جوف صناديق انتخاب ، قام على حراستها جنود سلطات الاحتلال .

بل انه منذ سنوات تسع لا تزيد ، قام الرئيس الحالى لدولة تتباهى اليوم بأنها قد غدت مستقلة ، وقد هالته بوادر التحرر ، فيؤكد لنكروما « ان بلاده سوف تجنى فى أحضان الوجود الاستعمارى أضعاف ماسوف تحققه غانا اذا ما استقلت » (١) .

ونكروما نفسه ، وايمانه بالحرية معروف،وكفاحه فى سبيلهالايمارى فيه ، انتزع لبلاده استقلالا أمره عجيب ، فيدفع بقواته تحت راية الامم المتحدة ابان أزمة الكونغو ، فيواجه بها ، ضمن ما نيط بها أن تفصل ، احتمالات التدخل الاستعمارى من خارج ، ويقف الجيشان وجها لوجه على جانبى خط الحدود ، جيش الاستعمار البريطانى فى « الروديسيات » وجيش غانا ، رمزا لافريقيا المتحررة ، متحفزا للدفاع عن مقدرات الكونغو أو يموت ، هنا وهناك على رأس هذا الجيش وذاك ، قائدان — كلاهما بريطانى (٢) .

ثم ان ذلك الجيش الذى نذر لتحرير أفريقيا كما قيل لم يكن يحركه فحسب ، قائد كيانه مرتبط بعاصمة الاستعمار منها أتى واليها يعود ، وانما هو يرتكن فى مقدراته أيضا الى حكومة قد لغمت صفوفها بالمستشارين البريطانيين ، هم نفس الرجال الذين صاحبوا وزراء غانا الى مائدة المفاوضات حين بدأ الحوار مع وزراء غينيا ، تمهيدا لخلق دولة اتحادية فيما بين البلدين ؛ وكانت لحظة ذهول ، آثر بعدها الوفد الغينى ان يمسك عما كان يريد أن يقول .

أهى مفاهيم للاستقلال جديدة علينا ؟ كيف كانت ؟ وأين أسبابها ودوافعها ؟ هل نبحث عنها خارج القارة فنتلمسها فى ظواهر العصر ؟ هل نرجع بأسبابها الى نتائج الحرب العالمية الثانية وماتمخضت عنه من طفرات علمية مذهلة ؟ ام الى الضغوط المعنوية العنيفة التى تعرضت لها الدول الاستعمارية فى قاعات المنظمات الدولية والمؤتمرات العالمية كلما احتدم النقاش حول مشاكل التحرر والاستعمار ؟ .

---

(١) Claude Wauthier :
L'Afrique des Africains : Editions du Seuil, Paris, 1954, P. 288

(٢) R. & M. Cornevin :
Histoire de l'Afrique. Petite Bibliothèque Payot; Paris, 1964. P. 373.

أم أنه كانت هناك الى جانب ذلك كله مناطق كفاح ؟ وكفاح مرير ؟ شهدت فيها أجزاء من أرض القارة الدماء تسيل فآثرت دول الاستعمار أن تنحسر عن مواقعها قبل أن تلتهب القارة جميعا ، ثم من يدرى ، فلعل ان تواتيها الفرصة من بعد فتعود الى السيطرة من جديد .

أهى ثورة الماو ماو ؟ ربما قد كان لهـا بعض أثر ، ولكنها فى حقيقتها كانت وقدة **اليأس** عمادها ثم وقودها قبيلة بعينها ، استمدت الفورة من طقوس موغله فى القدم ، هى سلاحها فتتصدى للدخيل تراوده نفسه أن ينتهك سيطرتها على أراضيها الخصبة ، ولقد كانت القبائل المحيطة بهـا هى مصدر الخطر الاول قبل قدوم المستعمر ، ولسوف تظل حين يجلو ، طالما خضعت الشاعر لطقوس العصور الخوالى ، تأصلت خلالها روح من عداوة ، عسير أن تنتزع تجاه تلك القبائل .

ثورة الماو ماو تلك أكلت نفسها اذ أحرقت مالم يتعد نطاقها المبـاشر فاذا كانت قد أدت آخر الامر الى اعلان استقلال كينيا فهو اسـتقلال غريب المضمون ، انهم لم يزروا فى الاستعمار الا انه قد انتزع منهم أرضا ، فاذا تيسر لزعماء اليوم أن يتملكوا الاقطاعيات ، فهو الاسـتقلال الذى يريدون ، وحسبهم ذالك ولا يزيد .

أم انها ثورة الجزائر المجيدة ، انها مثل الماو ماو قامت تتحدى واقعا غير مقبول ، ولكنها على النقيض منها ، تطلعت الى ما سوف يتحقق ، وليس العود الى اجترار ذكريات الماضى بأوضاعه وظروفه ، ولذا فان بدايتها المتواضعة بالقياس الى زميلتها ، سرعان ما شملت أركان البلاد فأصبحت قومية ، ثم اذا بها تتخطى جميع الحدود ، ثورة أفريقية بـكل معانى الكلمة ، فتجرف الفواصل المصطنعة التى أقامها الاستعمار بين الشمال والجنوب ، بين أفريقيا العربية وأفريقيا الزنجية (١) ، اللتين لم يكن بينهما قبل قدوم المستعمر انفصال .

وتسارع **((الجمهورية الرابعة))** ، ولم تكد تفيق من صدمة **((دين بيان فو))** ، خشية قيام تلاحم شعبى فى الشمال الافريقى كله ، فتعلن استقلال البلاد المجاورة فى **((اطار من ترابط))** ، ولكنها تعلم بل تؤمن ، بصميم كيانها الاستعمارى المستتر خلف أقنعة من اشتراكية زائفة ، ان جبهة التحرير الجزائرية انما تستمد القسط الاكبر من عونها الخارجى ، ماديا كان أم معنويا ، من تلك الثورة التى تفجرت فوق أرض مصر ، فالى القاهرة اذن ! ثأرا لجميع ما لحق بها من هزائم واهانات ، منذ أن وطئت أرضها جحافل الالمان ، وتأمينا لما تبقى لها أو ما يمكن أن يتبقى لهـا من نفوذ ومقدرات عبر البحار ، وجمعت فرنسا أحقادها جميعا تغوص بها فى عمليات التآمر اذ واتتها الفرصة بعد تأميم القناة .

---

(1) Charles - Henri Favrod :

L'Afrique Seule, Ed, du Seuil, Paris, 1961, PP. 13 - 15.

ولقد الهبت هزيمة الاستعمار فى السويس مشاعر المناضلين الافريقيين فأقبلوا على الكفاح فى عزم واصرار ، ولكنها كانت مراكز ثورة ، كما هو شأنها دائما فى مستهلها ، متناثرة دون ما رباط بينها ، بل فورات تفجرت أساسا فى مواجهة ما كان يتعرض له الافريقى من اهدار لحقوقه ومكانته كانسان ، اذلالا لكرامته ، وبخسا لمؤهلاته ، فنية كانت أم ثقافية ، اذا كان قد أصاب قسطا من خبرة أو تعليم .

ولو أن الكفاح قدر له الامتداد ، لكان خليقا أن يمكن ، داخل حدود كل وطن ، لقيام ترابط اجتماعى بين زمر المكافحين ، ثم جغرافى بين مناطق الكفاح ، الا أن الاستعمار سارع اليها بأعلام الاستقلال ، التى اذا ما اعوزتها لحمة القومية ، تظل من نسيج هلهال .

⊙❖⊙

ننظر الى دول افريقيا المستقلة ، فاذا هى وحدات سياسية ، قوامها مجاميع جنسية أو لغوية متنافرة ، بعضها شطر من وحدة أكبر مزقتها الحدود شتيتا ، دون أن تدرك لذلك سببا ، فهى فى تنافر مع من فرض عليها أن تجاور وتخالط ، ويشدها التراحم الى من بوعد بينه وبينها ، بل فصل عنها وعزلت عنه .

تلك الحدود السياسية لاتترجم لنا واقع حال محلى ، كما فى بلاد العالم الاخرى ، وانما تروى لنا قصة المصالح الاوروبية اذ أطبقت على القارة ، وما وقع بينها من تصادمات ، وليس بالضرورة على الارض الافريقية بالذات ، هل نقول ان أفريقيا انما هى مرآة انعكست على صفحتها أطماع أوربا اذ تصارعت وتضاربت ، فتشجع بطول وعرض الى تصدعات ــ الى حدود سياسية ــ تمثل أصلا خطوط القوة وخطوط الضعف فى تاريخ أوربا ، فاصبحت اليوم خطوط القوة وخطوط الضعف بالنسبة لواقع أفريقيا المعاصرة ، أورثتها اياها أوربا حين أسلمتها أعلام الاستقلال .

انظر الى سلفانوس أولمبيو ، رئيس وزراء توجو الذى أغتيل منذ سنوات اذ يتلمس فى مشروعات الوحدة الاوروبية عاملا يبشر « **باعادة توحيد افريقيا** » ، كما قال وغاب عنه انه اذا كانت الصراعات الاوروبية قد فتتت أفريقيا الى دول فى اطار من حدود اصطناعية ، فان أوربا اذا ما توحدت أو اتحدت ، لن يرضيها ولن يلائمها الا ان تظل افريقيا على ما هى عليه من تشذب وتنافر .

انبثقت حركات التحرر الافريقية فى المدن اساسا ، بين المثقفين وأعضاء نقابات العمال وفى صفوف المحاربين القدماء الذين جندوا للحرب العالمية الثانية ، من تلك الطبقات التى عانت من التفرقة اذ تلمست تكافؤ الفرص خلال احتكاكاتها اليومية بالوجود الاستعمارى ، فلم تجدها ، زعماء حركات التحرر جميعا من تلك الطبقات ، ليس واحد منهم الا وهو متمكن من لغة المستعمر ، أو قادر على استخدامها فى الخطابة على الاقل ، الجماهير التى يحركها هى تلك الجموع التى اكتظت بها الاحياء الفقيرة ، « مدن

الصفيح » كما يقولون ، حيث البؤس والبطالة المقنعة والضيــاع ، أولاء الذين اجتذبتهم المدينة ، فلم يجدوا فيها مامنوا به أنفسهم ، ولم يجنوا سوى انفراط روابطهم القبلية ، والتى كانت الحافظة لكياناتهم الشخصية.

حركات التحرر هى ثورة المدن الافريقية بحثا عن كرامة الانسان وقد أهدرت ، وزعماؤها أولئك الذين عانوا أكثر من غيرهم ، فلم يرضوا بما قسم لهم الاستعمار ، مستوياتهم الثقافية أو العلمية أو الفنية لم تشفع لهم ، زاحمهم من هم أقل قدرة أو كفــاءة فزحموهم ، بفضل مؤهلات من لون بشرة وانتماء لجنسية أوربية ، لاخلاص اذن الا عن طريق التحرر ، ولا سبيل الى تحرر الا أن يرفع لواء القوميــة ، وهو ماعبرت عنه بصدق صيحة نكروما المشهورة « المملكة السياسية أولا .. » .

وفى البلاد الناطقة بالفرنسية بعامة ، حيث جنسية « الدولة الام » تمنح ، وحيث المكانة السياسية ربما تيسرت ، حتى داخل قدس أقداس الديموقراطية على الطريقة الغربية ــ الجمعية الوطنية بباريس ــ فتتجلى قدرة النواب الأفريقيين أحيانا على ترجيح كفة على أخرى عند التصويت على مشاكل هى من صميم واقع فرنسا السياسى(١) ، فان تيارالمطالبة بالاستقلال السيــــاسى لم يتميز بقوة أو عمــق ، حتى قيل ان الناطق بالانجليزية من الزعمــاء الافريقيين ، ينكب على القــوانين الدستورية يستخلص منها مايوائم الاوضاع فى بلده ، بينما الناطق بالفرنسية لاهم له الا ان ينظم القصائد متغنيا « بالزنجية » (٢) .

فقد كان لديهم ، مثل غــــيرهم ، شعور بالانتماء الى عالم غــير عالم البيض ، فاتجهوا بفضل من حس مرهف ومستويات من ثقافات انسانية عالية ، يبحثون عن الاصول فى التراث الافريقى الزاخر ، فتنكشف أمامهم ثروات فكرية مذهلة فى رحاب ماض عــــريق ، ويتلفتون من حولهم سعيا وراء كيانهم المفقود ، وبعثا لتالد قيمهم الحضارية فيجابهون العالم « بالزنجية » ، مفهوم يحلق بهم الى آفاق عليا على أجنحة من مشاعر شبه صوفية(٣) ، فاذاماقدرلهم آخر الامرأن يخوضوا خضم الواقع السياسى الحديث ، احتكاكا بالعالم الخارجى ، أو التقاء مع مايجرى من حولهم فى أفريقيا الناطقة بالانجليزية ، تملكهم شعور طاغ بأن كرامة الانسان الافريقى ليست «واقع ضمير» فحسب وانما هى أيضا حق سياسى ، وانهم كغيرهم من البشر ، أصحاب قومية متميزة ، جديرون بأن يكون لهم مثل غيرهم من الدول ، الوجود السياسى الذى يجسد تلك القومية فيؤكدها .

والذى نريد أن نبرزه ان مفهوم القومية فى افريقيا المعاصرة ، قد نبع اساسا من مجابهة مظاهر السيطرة الاستعمارية ورفضا لها ، دون ماتبلور واضح لضرورة ارتباطها بولاء لأمة تحتويها دولة ، أو دولة قوامها الامة ، والذى هو جوهر القومية فى مفهومها الحديث (٤) .

---

(١) المرجع (٢) ، ص ٣٥٦ .

(٢) M.J. Herskivits : L'Afrique et les Africains, Payot, Paris, 1965, p. 200

(٣) مثله ، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٦

(٤) جمال حمدان ، افريقيا الجديدة ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٩٨

واذ يخرج المستعمر فانه لا يترك فراغا سياسيا ، كما يحلو للبعض أن يتشدقوا ، وانما ويا ليته ما كان ؛ هياكل من انماط سياسية عكست بشكل أو بآخر النظم السائدة لدى الدول الاوروبية ؛ فهى اما قائمة على ثنائية من حزب حاكم وآخر معارض كما فى بريطانيا ، او مستندة الى التمثيل النسبى كما فى فرنسا حيث مقاليد الحكم الى مجموعة ائتلافية ، بينما يتجمع الباقون لتشكيل المعارضة . وانها لاوضاع فرضت على الواقع الافريقى أن تقوم حياته السياسية على أكتاف أحزاب ، لاتجد عناصر تكوينها الا عند أولئك النفر الذين نهلوا من الثقافة الاوربية أو وعوا أساليب حكمها ، فعمادها سكان المدن من مثقفين وعمال وحرفيين وموظفين ، وثمة ظاهرة اخرى خطيرة ، فلا يخوض الحياة السياسية ، بل لايتأتى له أن يفعل ، الا من كان له المام بتلك اللغة الاجنبية ، التى أورثتهم اياها « الدولة الام » حين كان استعمار .

أما جموع الشعب فى الغابات والاجم وفى أقاصى الريف ــ تسعون فى المائة من السكان أو تزيد، وربما تسعة وتسعون فى بعض البلاد ــ فحالهم كما كان وكما سوف يكون لسنوات عديدة طويلة ، لا أمل لهم الا مكابدة البؤس والاستغلال والجوع والمرض ، « الاستقلال ليس لنا وانما لسكان المدن» ، كلمات جاءت على لسان فلاح افريقى (١) ؛ ولو أننا جبنا القارة الافريقية شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، لتعذر علينا أن نسمعها مرة أخرى ، فأين هو فالح الارض ، الا فى قلة قليلة من بلاد ، الذى درى بأن هنالك استقلالا أو وعى معناه ، فنقع عليه ونسمع منه مثل ماسمع ناقل ذاك الحديث ؟

انما الاستقلال لعشرات من أفراد فى العواصم الافريقية ، مفهومه الامتيازات الصارخة من مرتبات عالية ومنازل فخمة بل قصور ، وسيارات رافهات ، واستقبالات دبلوماسية لألاءة ، ورحلات وزيارات ؛ ووزراء كانوا بالامس طلبة فى جامعات لندن أو باريس ؛ فاذا بهم اليوم محط الأنظار فى مقاعد الامم المتحدة والمؤتمرات الدولية جنبا الى جنب ، وعلى قدم المساواة مع عتاة السياسة الاستعمارية ، أسياد الامس القريب، فلا غرو أن تسكرهم النشوة فيغفلوا عن واقع بلادهم المرير ؛ عن واقع الريف الذى كان ، وما يزال ، العمود الفقرى لكيان البلاد الاقتصادى ، كما أراد له المستعمر أن يظل ، فى صورة محصول تصديرى واحد لاغير .

ومن حولهم جموع من موظفين وأنصار يتسابقون الى مرتبات الوظائف دون أسبابها ، غافلين عن أن المستعمر انما رصدها لأبناء جلدته ، اعلاء لشأنهم ، وتعويضا لهم عن اغتراب ؛ ثم انها بعد كل هذا أجور على أعمال مفروض أن تؤدى وليست ثمن « **فشخرة** » مقعد ومكتب وأبهة ومنظر ، وأعجب بالنائب البرلمانى ممثلا لدائرة انتخابية

---

(١) **Pasil Davidson : Which Way Africa ? Penguin Books, London 1964, p. 131**

قوامها ....٦٠٫ فيقطع له مرتب يزيد بمقدار الثلث عن مكافأة عضو مجلس العموم البريطاني وهو المسئول عن عشرة أضعاف من يمثل من ناخبين (١) .

وربما وراء ذلك البذخ شعور بأن القارة تحمل في جوفها ثروات مذهلة ليس لها من نهاية ، الا انه أمر لا قيمة له مادامت تقصر بهم امكانياتهم الفنية والصناعية عن استغلالها بمستوى من كفاءة يرقون به الى مقتضيات العصر الحديث . ليس أمامهم الا أن يبدأوا وأن يحاولوا ، اما أن يلوى كل برأسه ، وهمه الأوحد رغد من عيش في اطار من واقع متيسر ، فالنتيجة الحتمية تدهور مستمر للمقدرات المتاحة وانهيار في القيم ، حيث الوظيفة الحكومية بمرتباتها الضخمة أربح التجارات ، وحيث الواجبات والمسئوليات المرتبطة بها ؛ والخدمات العامة المفروض أن تؤدى عن طريقها زوائد قد علقت بها ، حبذا لو أمهلت بل أهملت ، والا تعكرت الأمزجة .

ثم أن الريف أيضا أصابته آفات استعمارية ، وأفدحها الاضطراب الوظيفي للزعامات القبلية التقليدية ، اذ حادت بها متطلبات الادارة الاستعمارية عن صميم كيانها ، وتلاعبت بأصولها خدمة لأغراضها ، فمكنتها من السيطرة لحسابها بوسائل من سطوة اقطاعية تتنافى مع طبيعة الملكية الجماعية كما عرفتها افريقيا عبر القرون ، أو أن صانعت أصحاب النفوذ التقليدى منهم ، دينيا كان أم قبليا ، فيغضوا الطرف عن ضيم يحيق بالمجتمع الذى نصبوا لرعاية مصالحه .

واذ يخرج الاستعمار فينزح عن ريف افريقيا عماله الاداريون ، فقد ترك من خلفه تقسيمات ادارية ركبت داخل اطار من مركزية طاغية ، تحتم على الحكومات ، وشيكة الاستقلال أن تختار لها ممن أصابوا نصيبا من خبرة في ظل الادارة السابقة ، وانهم في جملتهم بحكم توظفهم السابق ذلك ، قد انقطعت صلاتهم القبلية ، أو نفضوها عنهم ازدراء لها ، ثم انه قليلا ما يتأتى للسلطة المركزية الجديدة ، خضوعا لحتمية ظروف ، أن تجد لتلك المراكز من كان يمت أصلا الى واقعها القبلى ، فتستعر مشاعر من سوء فهم أو عداء مكبوت ، حرية بأن تنفجر اذا ما جاوزت حدها ، وانى لاى من الجانبين أن يعرف أين الحد الذى يقف دونه ، وكل تتحكم في تصرفاته مقاييس أبعد ما تكون عن القيم والمعايير التى يدين بها الجانب الآخر ؟ .

فما أفدح ما أورثه الاستعمار افريقيا من متناقضات ، وأدهاها أن يكون الحكام في أغلب الاحيان العقبة التى تحول بين الشعب وبين أن يتعرف على كوامن نفسه وامكانياتها الهائلة .

⊙❖⊙

وأسارع فأقول ان ما قدمت ليس له صفة الشمول ، فقد أشرقت على القارة بوارق من أمل ، ومنها ما كانت رائدة سباقة ، كما هو حال

(١) مثله ، ص ١٣٢ .

التجربة الغينية ، **فيقرر سيكوتوري ان شئون الدولة هي مسئولية مواطنيها جميعا ، وفي مقدمتهم سكان الريف ، الغالبية الغالبة كما هو الحال في الواقع الافريقي** ، فاذا كانت البلاد تعاني من تناقضات فرضها الاستعمار بنظمه الاقتصادية أو السياسية ، الاجتماعية أو النفسية ، وجب على المسئولين أن يتغلبوا عليها ثوريا ، ولكن حذار ، فان الثورة لا تفرض من عل ، وانما الشعب يصوغها لنفسه وبنفسه ، ولذا فاننا نرى غينيا تمور بعمل دائب من تنظيم سياسي يمد بأطرافه الى حنايا الدولة فلا يجاوز قرية واحدة من آلافها الاربعة ، كل منها لها لجنتها السياسية العاكفة على دراسة مشاكلها في أدق تفاصيلها ، تبلورها من خلال مناقشات متصلة يشترك فيها الجميع دون استثناء ، وتلتقي اللجان مع بعضها بعضا في تسلسل مترابط يصل القاعدة بالقمة ، الأطراف بالرأس ، تغذيها بأحاسيس نبضها الحي .

انها المثل المشرق للديموقراطية الافريقية منبثقة من واقع الارادة الشعبية ، انها الأداة التي خلقت وحدة الشعب الغيني ، حتى قبل أن يكون استقلال ، فمكنته ، دون غيره من شعوب افريقيا الناطقة بالفرنسية ، من أن ينتزعه حين جرى استفتاء عام ١٩٥٨ ، ثم مضت تصهر تلك الوحدة صهرا ، عبر العداوات القبلية المتأصلة ، عبر المصالح الاقتصادية للفواصل الاقليمية ، عبر احتمالات سيطرة الطبقية الجديدة التي أطلت بأطماعها تستنزف مقدرات غيرها من بلاد ، ان **سيكوتوري** يرفضها رفضا قاطعا ، وينفذ الى تشخيص العلة من خلال العرض فيعزو أسبابها الى أساليب التعليم الاستعماري الذي عمل جاهدا على خلق طبقة من مثقفين ، سلبوا جوهر شخصياتهم ، وعرى أمامهم صميم المفاهيم الافريقية من قيمها الاصيلة فيتمثلهم الاستعمار خداما لأهدافه ، اما هنا في غينيا فلا حق لهم في مزايا أو ضمانات على حساب الشعب ، لا عيش لهم الا أن يعودوا الى أصولهم ، فيكرسوا ما أصابوا من علم أو ثقافة في سبيل الارتقاء بواقع الامة والوطن .

وعلى الرغم من ضعف امكانياتها الاقتصادية بالقياس الى غيرها، فان الدولة الغينية تطالعنا بالمثل الحي لما يمكن أن تصير اليه **((الدولة الامة))** في افريقيا المعاصرة ، ومع ذلك ، أو ربما من أجله ونتيجة له ، فانها أقرب دول القارة الى الاحساس العميق بأصالة **((الوحدة الافريقية))** ليس في مواجهة عوالم أخرى ، ولكن ايمانا ، بوحي من تجربتها الخاصة بأن أساسا من وحدة يكمن خلف أستار الاختلافات السطحية بين الشعوب .

الا اننا ربما شعرنا أيضا بأن النجاح المذهل الذي حققته غينيا في تجربتها الداخلية قد أخل بموازين تقييمها للاوضاع المحيطة بها ، عند جيرانها الأدنين على وجه الخصوص .

وربما أكون قد أخطأت التقدير اذ عزوت احساس غينيا العميق بأصالة الوحدة الافريقية الى النجاح الذي حققته في صهر العناصر القبلية داخل حدودها آلى وحدة من **((دولة أمة))** بل ربما كان العكس هو الصحيح : فقد كان يتملكهم ، حتى قبل أن يكون استقلال ، ايمان

مطلق بوحدة مصير القارة ، ايمان جارف كان هو الدافع الاول الى ما حققوا من منجزات داخلية فأتراجع عما سبق وقدمت وأقرر أنهم لم يخلقوا ((**الدولة الأمة**)) بل الوحدة العضوية لما أرادوا له أن يصبح خلية حية للكيان الاكبر الذى هو ((**الوحدة الافريقية**)) .

عمل ضخم أقدموا عليه بهمة وعزيمة ، دون كلل ، مؤمنين بأنهم لم يفعلوا الا ما كان غيرهم قد فعل لو تهيأت لهم نفس الظروف — فلا فضل لهم فى شيء — وان هو الا بضع من سنوات فيسقط الاستعمار وتهب الشعوب الافريقية جميعا متآخية متكاتفة متضافرة نحو الهدف الأعلى .

وكم كانت الصدمة عنيفة حين تطورت الامور فى أفريقيا الى عكس ما كانوا يتوقعون ، البناء الغينى كله قائم على أنهم جزء من كل واحد ، ولكنه جزء ضعيف الامكانيات ، فقير الموارد ، والزعماء من حولهم سكارى بنشوة السلطة ، واستقلال مضمونه الوحيد مجرد أعلام مرفوعة ، بينما الاستعمار الجديد ينهش فى كيان البلاد من حولهم ، بل ويستمد من امكانياتها قوة فوق قوة يضيق بها على المراكز الاصيلة للثورة والتحرر ، تلك المراكز ضئيلة العدد ، المعزولة عن غيرها ، والتى هم أحدها .

فلا غرو أن تتسم نظرتهم الى الجيرة بضيق وخيبة أمل ، وربما باستنكار يحرك النفس الى كوامن من غيظ مكتوم ، ليس لما قد يحيق بغينيا وانما لأن هدف افريقيا الاعلى والاسمى قد غدر به .

ولا غرو أيضا أن يشوب تصرفاتهم ازاء الجيرة ، ومن ثم فى المجال الدولى ، تسرع أو اندفاع .

ولكن الذى لا شك فيه ، أن غينيا اذا ما تغلبت على الامتحان العصيب الذى تعانيه اليوم ، نتيجة للصدام المروع بين مبادئها وبين الواقع الافريقى المحيط بها ، فانها سوف تكون مرتكزا ومنطلقا لافريقيا الغد ، حين تتمكن أخيرا الشعوب الافريقية من الانصهار الى وحدات قومية داخل الحدود السياسية التى أورثتها اياها تصارعات الاطماع الاستعمارية .

أما ان لعبة السياسة التى انزلق اليها زعماء أفريقيا فى خضم التيارات الدولية ، ثم اطماع الاستعمار الجديد بخاصة ، سوف تمضى بالقارة الى تأكيد تفتتها ، وتعميق مظاهر التباين بين وحداتها السياسة ، بل وبين عناصرها فى الداخل ، كما هى الحال فى أمريكا اللاتينية ، بل والى ما هو أسوأ وأضل سبيلا ، اذ انه لا تتوافر للافريقيين كما هناك ، وحدة لغة ، هل نسارع فنطالب بأن تراجع الحدود السياسية للدول الافريقية جميعا على أساس علمى ، كما قد يقال ، أو كما ينادى المثاليون من شباب أفريقى مثقف على غرار ما يجرى من مناظرات بينهم فى الجامعات الفرنسية بوجه خاص ؟

هل نحاول ان نقضى على التناقضات الجنسية أو اللغوية ، والانقسامات التى حتمت بعض القبائل حتا فنجمع الاشتات وننفصل

بالتخطيط الجغرافى بين أسباب الشحناء والتربص على أقل تقـــدير ؟ أليس هو السبيل الى لأم شمل المجتمعات على مســتوى القاعدة فى وحدات متكافلة متعاطفة ؟ أنعم به من حل «طوباوى» ، أو قل «معملى» أو «مشـتلى» ، ارتكز على قواعد علمية ركينة من حيث التصـنيفات اللغوية والجنسية والحضارية.. ولكن الشعوب الافريقية ليست جرذان تجارب أو فسيل نبات .

فاذا كانت الدولة قد جاوزت واقع الأمة ، بل قد هاضت من مقوماتها ، فانها قد استقرت الى حقيقة من وجود ، أمرا واقعا تدعمه حيثيـات من فقهية دولية لا مرد لها (١) ، ثم انها قد خلقت داخل تلك الحدود ، ثم داخل تقسيماتها الادارية ، تكاملا اقتصاديا من حيث الانتـاج ومن حيث التصريف ، ولا أقول التصدير ، ألى الدولة التى كانت ((**الأم**)) ، فالاخلال بتلك الاوضـاع يؤدى حتما الى فوضى وانهيار ، بل ان الزعماء الجدد قد وجدوا فى تلافيفها هياكل الاجهزة الادارية التى تسـاعدهم على اقرار السيطرة والتى هى مفهوم الحكم كما أورثهم اياه المستعمر، سيطرة وتحكما وليس ولاية ورعاية .

ثم أيضا ذلك المناخ الدولى الذى انجذب اليه الحكام الجدد يطالبهم، بل يحثهم على أثبات وجـودهم ، فيحيطون انفسهم بمهابة ، عرضـــة لانتقاص اذا ما فسرت المنازعات داخل بلادهم فى ضوء من تحكم قبلى أو طبقى ، ولكنها مدعاة لاهتمام ، بل ولتعاطف واجلال ، اذا ما ردت الى مؤامرات تحاك من خارج ، ثم انها حرية بأن تحتدم وتضطرم اذا ما فتح باب اعادة تخطيط الحدود ، فتهز مراكزهم هزا ، وتضـطرب العلاقات الافريقية جميعا وقد لفهــا جو محموم مسموم من حقد وعداوات ، وتربص ومطالبات ، بل واغارات واصطدامات ، كما هى الحال فى بعض المناطق التى لم ترض الدول المعنية بها بقرارات منظمة الوحدة الافريقية التى قضت عن حكمة وبعد نظر باحترام ســيادة كما قامت ، وسلامة أراضيها كما قضى لها بها .

وهذا التفتت السياسى ، أو تلك ((**البلقنة**)) كما قيل ، والتى كان أحد عناصرها الرئيسية الاســتقطاب الاقتصادى الذى فرضـته الدول الاستعمارية على التقسـيمات الادارية كما قدمنا ، لهو من جراء ذلك ونتيجة له ، المناخ المناسب للاستعمار الجديد يمرع فيه ويستشرى ، فأفريقيا ، كما يقول تكروما (٢) ، قارة تحتوى من الثروات على مايثير الشهوة الكالبة ، بينما الفقر المدقع يحول بين الافريقى وبين القدرة على استثمارها الا عن طريق الإرتباط بالتكتلات الاقتصادية لدول الاستعمار السابق فى أطار من كيان « أور فريقى » ، ترجمة اقتصادية لفكرة المجال الحيوى كما ابتدعتها «**الجغراسية**» (٣) النازية ، ارتكازا على المعادلة

---

(١) Jean Ziègler : Sociologie de la Nouvelle Afrique, Gallimard, Paris, 1964, p, 11

(٢) المرجع (١) ص ٢٦٨

(٣) كلمة منحوتة نحاول أن نعبر بهـا عن مفهوم الـ Geopolitik والذى تعجز « الجغرافية السياســية » عن الافصاح عن مضامينه

التى تقــول « **بأن فقر تربتها يحوج افريقيــا لاوربا ، بينما ثراء باطن أرضها لا يغنى هذه عنها** » (١) .

ومما يزيد الدول الافريقيــة ضعفا على ضعف أن « **بلقنتها** » أثقلت على صفوف مثقفيها ، فأرهقتها بتجنيد عناصرها ولم يكتمل نضجهم ، الى مئات من مناصب وزارية وادارية واقتصادية ودبلوماسية ، طلبة الامس فى جامعات أوربا نظراء لاساطين السياسة الاستعمارية ، أسـياد الامس ، فى المحافل الدولية كما سبق وقدمنا ، فتسـكرهم أوضاعهم الجديدة وما يحيط بها من مظاهر أبهة واقتدار خادع .

جميعها أحوال وظروف وملابسات تؤدى الى تأكيد التفتت بين الدول من خارج ، والى اشاعة الاضطراب وعدم الاستقرار من داخـــل باثارة النعرات الاقليمية أو « **القوميات القزمية** » كما توصف أحيانا .

ثم ان فكرة «الوحدة الافريقية» لم تنبع من القارة نفســها ، وانما قامت على أكتاف الزنوج فى الامريكتين ، ومن مواطنى جـــزر الهند الغربية بخاصة ، جمعت بينهم مشاعر وحدة من جنس تجاه مجتمعات البيض ، بعيدا عن الواقع الافريقى بضروبه المتنوعة وتفصيلاته المتباينة ، روادها السياسيون هم الناطقون بالانجليزية أمثال « **بدمور** » ، بينما اتجه الناطقون بالفرنسية أمثــال « **سنزير** » ، الى النواحى الثقافية والحضارية ، هم النواة التى استقطبت الافريقيين أنفسهم فى نضالهم المرير تجاه السيطرة الاسـتعمارية فاذا تجمعوا من حولهم ترسبت فى نفوسهم نفس المشاعر التى خلقت قوتهم الدافعة ، ويتولد لديهم ايمان شبه أسطورى بالا سبيل الى تحرير افريقيا الا انطلاقا من تأكيد وحدة الجنس والمناداة بوحدة القارة ، فافريقيا من الافريقيين واليهم ، عالم واحد فى مجابهة العوالم الاخرى ، عالم يتميز عنها جميعا بشخصيـــــيته المتفردة .

فاذا ماتحررت افريقيا وانزاحت عنها بعد طول كبت ظواهرالسيطرة الاستعمارية المباشرة ، تلفت الافريقيون من حولهم بحثا عن شخصيتهم تلك المفقودة ، فتتلقفهم الروابط القبلية ، المتضاربة داخــل اطارات التخطيطات السياسية أو الاقليمية ، والتى تلاحقهم بدورها ، مطالبة اياهم بولاء فورى لمفهوم من « دولة أمة » ، حيث لا أمة .

ولكن الكفاح الطويل الذى استلهم عناصر من « **شخصية افريقية** » متميزة ، اقرارا لحق الافريقيين فى التحرر والاستقلال ، قد أصــل من فكرة « **الوحدة الافريقيــة** » ، عقيدة لا يداخلهـا باطل ، وان أعوزتهم مناهج الصراط اليها ، فاليها يرجعون تطلعا لأمل ومصير ، بل ومرتكزا لوحدة عمل كلمـا عرضت بصميم جوهرها أحداث ، أو موئلا وملاذا فحسب اذا ما تجهمت الاوضاع .

انها كل شىء ثم لا شىء ، فهى العلم الخفاق الذى تفزع اليه الدول الافريقية جميعا ، دفاعا عن حرية انجولا وموزمبيق ، وتنديدا بالحكومات

---

(١) المرجع (٧) ص ٢٣٥

العنصرية فى روديسيا واتحاد جنوب افريقيا ، فاذا ما هدأت الفورة وتجددت أسباب الخلاف تعددت بالتالى بين الدول الافريقية مواقف التربص ثم الاصطدامات ، انها ـ أى الشخصية الافريقية ـ قد صارت الى أمل ، أمل المستقبل مصيره الى أن يتحقق حتما ، كمايقول أزيكوى، رئيس جمهورية نيجيريا السابق (١) ، ولكنها مجرد أمل بعد كل هذا، أما بالنسبة لنكروما (٢) وسيكوتورى (٣) ، فانها ضرورة ملحة ، يفرضها المنطق الثورى ، الوحدة هى سبيل افريقيا الى مجابهة أخطار الاستعمار الجديد بأن تتكامل القارة اقتصاديا ، ولكنها صيحات تضيع حين يجتمع أقطاب افريقيا مرة تلو اخرى ، فى تيه من بحوث عن حلول تبادلية من أسواق مشتركة ، ومناطق للتبادل الحر أوالتعريفة الموحدة، ثم مصارف للتنمية الى غير ذلك من مقترحات تقول بالوحدة الاقتصادية، بينما تتستر من خلفها الشكوك وتتعمق الانقسامات ؛ انها أخطر مظاهر عقيدة « الوحدة الافريقية » ، اذ تستخدم أستارا للتمويه على آمال الشعوب .

⊙◈⊙

ثم أثفية ثالثة يحاول الواقع الافريقى أن يجعل منها مرتكزا ، « **الاشتراكية الافريقية** » شعارا لظاهرة الحزب الواحد أو تبريرا لها ، وقد انحنا الى ما قام به سيكوتورى بوحى من ايمان وبقوة من عزيمة ، فخلق من غينيا « **الدولة الامة** » بفضل ذلك التنظيم السياسى الذى احتوى الشعب فى اطار من حزب واحد ، والذى أصبح ظاهرة شبه عامة .

ونظام الحزب الواحد ضرورة افريقية مافى ذلك من شك ، فالمجتمعات الافريقية ، كما يقول سنجور (٤) ، اشتراكية فى جوهرها ، اذ تقوم على فلسفة من مفاهيم انسانية فى تداخل مع مضامين روحية ، ليست تجمعات أفراد بقدر ما هى أواصر وشائجية تعمقت الى ترابط نفسى ، وربما كان نيريرى ، رئيس جمهورية تنزانيا أصدق من عبر عن أصول «**الاشتراكية الافريقية**» كما يجب أن تكون ، العشيرة قاعدتها والمجتمع المتآصر هدفها ، انها ترفض الرأسمالية التى تقوم على استغلال الانسان للانسان ، بنفس القوة التى ترفض بها «**الاشتراكية المذهبية**» التى تقول

---

(١) المرجع (١) ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠
(٢) مثله ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣
(٣) مثله ص ٢٦٨
(٤) مثله ص ٢٥٩

بحتمية اصطدام الإنسان بالإنسان ، انها ــ أى الاشتراكية الافريقية ــ اتجاه فكرى فى قالب من بنية اجتماعية قوامها الانتاج التعاونى ، منبثقا من القيم الافريقية التقليدية ، حيث لا مكان لمن لا يعمـــل ، والكفالة والاستقرار لكل من يعمـل ، واليك بالمثل السواحيلى الذى يقول بأن « الضيف ضيفك يومين ، وفى الثالث اديه الفاس وودية الغيط » .

ثم انه قد وضح للجميع أن الاستقلال السياسى ليس وحـــده كفيلا بتقديم حلول جذرية للمشاكل التى تعانى منها أفريقيا ، وانما الحاجة ماسة بل ملحة الى اعادة تشكيل حياتها الاقتصادية على أسس جديدة ، فتتخلص من تبعيتها للاقتصـــاد الغربى ، ولكن أنى لها بروؤس الاموال التى تعينها على التنمية ، فهنـــاك بعض من الافريقيين فى قلة من بلاد ، كونوا لانفسهم ثروات عن طريق التجارة أو ممارسة المحـــاماة ، ولكنهم ليسوا من تلك الجبلة التى تجازف بأموالها فتقدم على مشاريع التنمية التى تحتاجها البلاد ، واذا فعلوا فانى لهم بمنافسة الشركات الاحتكارية العالمية ، ليس اذن من سبيل الا تجميع اشتات النشاط الاقتصادى فى وحدة متكاملة ، تعبأ لها الموارد المتاحة صوب أهداف محددة . أى أن تخضع الحياة الاقتصادية للتخطيط المركزى ، سمة مميزة للاشـــتراكية أينما تكون ، وليست الافريقية وحسب ، تستلزم قيام التنظيم السياسى الواحد ، أو الموحد على الاقل .

الاشتراكية الافريقية اذن ، وهم أو اسطورة اذا مارفعت شعاراتبريرا لظاهرة الحزب الواحـــد ، فهو فى بعض البـــلاد أداة لسيطرة عنصرية ، يفرضها على الزنجى المقيم ، أخوه الوافد على أفريقيا عبر المحيطات بعـــد تحرره من عبودية الاسلاف فى المهجر البعيد ، ولكنه أى الحزب الواحد ، فى الاغلب والاعم وسيلة لاقرار وتثبيت مزايا فادحة لتلك الطبقات التى آل اليها الحكم حين كان استقلال .

ولكنها ايضا ظاهرة ليس لها صفة الشمول ، فقد آمن نيريرى ، رافع لواء «الاشتراكية الافريقية» ، بأن المبادىء لا قيمة لها الا اذا انتقل بها البشر الى مجالات التطبيق ، والتطبيق بالنســبة له ليس معناه فرض نظريات وافدة من الخارج ، وانما الانطلاق الى الانجاز من واقع الظروف الموضوعية للزمان والمكان ، والانجاز ليس هو الحلول المفروضة من عل ، وانما العمل المشترك للشعب جميعا ، بعد اذ تنجح الزعامة السياسية فى توسيع القاعدة الافريقية الاصيلة والتى هى العشيرة فتحتوى الشعب فى اطار من مجتمع متآصر متآلف متكاتف على العمل .

ان نيريرى ليقدم لنا اليوم وخاصة بعد قرارات التأميم الاخيرة التى

اتبعها باعلان أروشا ، وثيقة العمل الرائعة تلك ، المثل المشرق للدول الافريقيـة اذ تخطو وئيدا مرتفعة بواقعها المتخلف دون ما تفتيت لقيم الاسلاف ، وانما انبثاقا منها وتطويرا لها ، مزاوجا بينها وبين منجزات العلم الحديث ، وصولا الى مجتمع رفاهية كل الشعب .

ولكن الذى لا شـك فيـه ان الطريق شـاق طويل ، ملغم بالعقبات والمؤامرات ، بالاستعمار المتربص والحكومات العميلة التى يقض مراكزها المرفهة فى السلطة تلك الانجازات التى تحققت فى غينيا ومالى وتنزانيا وغيرها من بلاد متحررة متطلعة الى أمام ، ثم ان تلك البلاد نفسها فقيرة فى رجالها ذوى الخبرة الفنية القادرة الى الانطلاق الى مجالات التصنيع، همها الاول بل طاقتها فى ظروفها الحالية تكاد أن تنحصر فى التركيزعلى الريف ، فما تزال الزراعة هى العمود الفقرى للتنمية الاقتصادية ، كمـا أن فالحى الارض الغالبية الغالبة من سكان دول القارة عموما ، هم عماد تلك التنمية ، ليس من حيث ناحيتها الاقتصادية ، بل والاجتماعية أيضا. فما زالوا يكابدون البؤس والمرض فى عزلة ، يتفاوت مداها من دولة الى أخرى ، عن مراكز التفتح لآفاق المستقبل ، والتى هى المدن كما قدمنا . الارتقاء بهم اجتماعيا هدف أسـاسى لا يمكن التغاضى عنه بأية حال .

ان هى الا بضـع من بلاد ، تحيط بهـا الاخطار من كل جانب ، بينما تستشرى أعراض الاستعمار الجديد بطول القـارة وعرضـها ، ينشب مخالبه فى جسدها المسجى ويطبق بأنيابه فى الاوردة يستنزف ثرواتها . بينما الزعامات المحلية قد غرقت فى ملهاة الامتيازات الشخصية ، همها اذا ما تولى أحدها الحكم أن يتحول بالنظم السياسية ، التى أورثتها اياه « الدولة الام » ، الى قلاع من تحصينات دستورية حمـاية لشخصه حفاظا على مركزه كرأس للدولة ، أم هل أقول كرئيس لجمعية المنتفعين بالاوضاع التى هيئت له ؛ حين سلمت الى بلاده أعلام قيل انها الاستقلال بعينه .

فليس غريبا أن نرى الانقلابات تتتابع متفجرة فى تلك البلاد ، تكاد أن تهدف جميعا الى الاطاحة بشخص رئيس الجمهورية بالذات (١) ، فهى لا تمثل ثورات شعبية بقدر ما هى صراعات على مراكز السلطة والجاه بين الطبقات الحاكمة أو القادرة على تولى الحكم (٢) ، ومن خلفها المصالح الاستعمارية المتنافسة ، كل يؤيد الفئة التى هى اداته الى الاستقلال.

---

(١) مرجع ٢ ص ٣٩٥

(٢) المرجع ١٢ ص ١٢

ولقد تعددت تلك الاحداث فى السنوات الاخيرة بصورة مزعجة ، فأحاطت التناقضات المروعة بجو من قلق دائم وعدم استقرار .

⊙❖⊙

أين اذن الخلاص ؟ أين طريق افريقيا الى الحرية والرخاء ؟ ان ظواهر الحياة السياسية فيها تشير الى أن هوة سحيقة ما تزال تفصل بين ماضيها وحاضرها فتحول بينها وبين المستقبل المشرق الذى طالما تطلعت اليه ، وان واجبنا بل واجب كل من آمن بقيم انسانية ان يحاول أن يضفى على الموضوع من لدنه عناية وجهدا ، وأحيانا يجد المرء نفسه مدفوعا الى محاولة استخلاص الدروس من الماضى ؛ علنا أن نعثر بمسلك تكون قد جاوزناه فأهملناه ، أو حيد بالقارة عنه فتاهت عن أن تعود الى جادته .

لا شك أن مستقبل البشرية رهين بأن تترافد المنجزات الحضارية فى تيار دافق دافع ، ولكن الذى نشهده على أرض القارة الافريقية هو التصدع الرهيب بين قيمها الروحية عميقة الجذور ، وان نعتت بأنها لم تتعد مرحلة « الاستحياوية » (١) البحث ؛ وبين ماديات الحضارة الغربية ؛ فتقاس قيمة المرء بما تملك يمينه وليس بما تتصف به نفسه من خصال (٢) ، فى حين يطالعنا تاريخ افريقيا بصفحة مشرقة من ازدهار حضارى حين كان بينها وبين روحية الاسلام وقيمة الانسانية التقاء .

هل يكون خلاص افريقيا حين يصير بينهما الالتقاء من جديد ؟ هذا الالتقاء الذى تطل علينا بوادره المشجعة فيما يجرى من تعاون خلاق بين افريقيا المتحررة ومعاقل القومية العربية الصاعدة ، وآخرها اجتماع القاهرة بين أقطاب خمسة ، هم فى حقيقتهم سبعة أو ثمانية تخلف منهم من تخلف لظروف خارجة عن ارادتهم .

تعاون خلاق سوف يفتح أمامنا ولا شك مجالات الانجاز الحضارى المعاصر بوحى من روحية أصيلة وقيم انسانية خالدة ، هل يمكن لنا أن نقول بأن أقدامنا قد اهتدت الى ناصية الطريق ؟ .

---

(١) Animism

(٢) المرجع ١٠ ص ١٠١

مطابع الاخبار

هــذا الكتـاب ..

الأعمال الفكرية والادبية للأستاذ حسين ذو الفقار صبري معروفة لجميع القراء . بكل ماتتميز به من صدق واصالة واتزان . وما زال صدى كتابه الأخير ، « يانفس لاتراعى » يتردد فى وجدان كل من قرأه بكل ماتضمنه من لمسات انسانية عميقة . والكتاب الجديد الذى تبدأ به دراسات اليوم أول اعدادها ، هو اول تجربة من نوعها فى المكتبة العربية ، تجمع بين التحليل العميق للظروف التى أحاطت بالنكسة فى ٥ يونيو ، والتعبير الصادق عن أثرها الوجدانى عند الكاتب .

ثم يقدم الكاتب فى هذه الدراسة ، صورة شاملة للعالم من حولنا ، بكل صراعاته المحتدمة والمعبرة عن أخطر مايحيط به من أزمات . ان تحليل الكاتب للعالم الثالث ، بكل مشاكله وآلامه ، وبومضة الأمل العظيم لتخطى هذه المشاكل والآلام ، انما يجسد — بعمق فريد — الحقيقة النابضة خلف جميع المظاهر السطحية الأخرى . وتحليل الكاتب لمشاكل العالم الرأسمالى ، ومشاكل العالم الاشتراكى ينبض بالصدق والاصالة ، ولا شك أن المؤتمرات السياسية العالمية التى اشترك فيها المؤلف بوصفه رئيسا لوفد مصر ، ساعدته على تقديم لوحة نابضة بالحياة ، لكل التيارات العميقة المولدة للأحداث التى تظهر على سطح الأحداث . تلك هى بعض الجوانب لرحلة طويلة غنية سيعيشها القارىء مشدودا الى كل خطواتها . ولقد اختارتها « دراسات اليوم » لتكون هديتها للقارىء بمناسبة صدور أول اعدادها .

مطابع الأخبار

الثمن ١٥ قرشا